التربية في الإسلام

دراسة علمية في فقه البيان الإسلامي في التربية

بقلم

الدكتور

أحمد عبده حمودة الجمال

أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين القاهرة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول رب العالمين سيدنا محمد الأمين ، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ...

فإن قوة الأمم ، وقوة الحضارات ، وقوة الحياة ، مرهونة بقوة الإنسان وتماسك شخصيته ، إذ ليس غيره يقيم الأمم والحضارات والحياة . وليس غيره يؤثر فى كل ذلك قوة وضعفا ، وبناء وهدما ، وبقاء واستمرارا ، وإعماراً وإفسادا .

وقد ناط الحق تبارك وتعالى بالإنسان مهمة الخلافة فى الأرض ، فهو بها سيد الحياة الأرضية دون منازع ، وهو بها يحمل أمانة هائلة ، ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، وهو بها المسئول الأول والأخير أمام خالقه سبحانه ، حفظ أو ضيع ، أدّى أو قصر ، عمل أو قعد ، أصلح أو أفسد .

والإنسان الذى شأنه هو هذا الشأن ، أعتنى به ربه وخالقه ، فوضعه من الكون والكائنات الموضع الأعز والأقوى ، خلق سبحانه وتعالى الكائنات لأجله ، وسخر الكون لخدمته وإعانته ، وأرسل إليه رسلا وأنبياء هادين مبينين ، وأنزل شرائع ترشد إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، رحمة بالإنسان ، وتنويراً له ، ولطفا به ، ومع ذلك كونه التكوين القويم

الذى به يعلم و يتعلم ، ويتحمل ويعمل ، ويؤثر ويتأثر ، ويفرق بين الخير والشر والنفع والضر .

ودلالة كل ذلك ، تتركز فى أن الإنسان ـ وقد أستخلف ـ لابد له من أن يكون هو بذاته وفى ذاته أهلا لذلك ، ولابد له من إعداد ، بعد أن كان ذا استعداد ، إعدادا يكون به كفؤا لهذه المهمة الخطيرة ، لا بد له من تربية وإعداد ، حتى يستقيم على الطريق الحق والصراط المستقيم .

وليس غير التربية يبنى الإنسان ، كما أنه ليس غير الإنسان يبنى الحضارة والحياة ، من هنا نقول : إن الإنسان تصنعه التربية ، فإن صلحت تربيته صلح هو ، وإن فسدت تربيته فسد هو قطعا ، ومن ثم فإن مشكلات الإنسان هى فى حقيقتها مشكلات تربوية ، ومشكلات الحياة والأمم لاشك عائدة إلى الإنسان ، أى إلى قضية التربية .

وعندنا نحن المسلمين ، تأخذ التربية الإسلامية وضع الأساس من بناء الإنسان وبناء الحضارة ، حيث كفل الإسلام صيغة تربوية فائقة الجودة والفاعلية ، تنتظم الإنسان فى كل مداركه وعناصر شخصيته وتضع الإنسان ضمن إطار من العلاقات المتوازنة ، مع نفسه وغيره وخالقه سبحانه .

ولانجانب الحقيقة إذا قلنا : إن إنحدارة المسلمين الراهنة ، بما تبديه من تخلف وتفرق وضعف وتبعية ، هى إنحدارة تربوية قطعاً ، لما غابت عن المسلمين وحياتهم أصول التربية الإسلامية ، وحكمتهم مناهج تربوية واردة وافدة ، أفقدت أجيالهم المتتابعة روح الإسلام العظيم ، بل وأفقدت الإسلام عطاءه الفذ فى حق الشخصية المسلمة .

إن مشكلة المشكلات فى حياة المسلمين الآن ومن قبل ، فى فترات

الضعف والتخلف هى بدون أدنى شك المشكلة التربوية ، النافذة إلى الإنسان ، ليصبح من ثمة هو المشكلة .

والنهوض من الوهدة ، والخروج من الإنحدارة ، يتركز فى العمل التربوى المؤسس على دعائم الإسلام وقوائمه ، تلكم هى المشكلة وذلكم هو الحل ، ولاحل سواه .

ومن هنا فإننا قد أهمتنا هذه المعضلة ، كما قد أهمتنا من قبل معضلة البناء العقدى للإنسان والحياة ، وأخرجنا فيها بعض ماقد أعان الله تعالى عليه (١) .

إن التحليل الدقيق لوضع المسلمين الآن ، يكشف بطريق مباشرة عن أن ما يحيق بالمسلمين الآن ، عائد إلى خلل عقدى ، وبعبارة واضحة ، عائد إلى خلل فى علاقة المسلمين بعقيدتهم ، من حيث التصور والتمثل والتحمل والأداء ، وهو الذى بدوره عائد إلى خلل فى الأداء التربوى : والمخرج ، من ثمة عقدى تربوى .

واستجابة لهذه الرؤية ، أقدمنا على الكتابة فى قضية التربية ، تحت عنوان (التربية فى الإسلام) ، لنؤكد على مايمثل الدعائم التربوية الإسلامية ، كمدخل إلى ساحة التربية فى الإسلام ، وكمقدمة تسلم إلى مزيد بحث إن أراد الله ووفق .

---

(١) بحث بعنوان : العقيدة الإسلامية وبناء الحضارة ، نشر بحولية كلية أصول الدين ، العدد السادس عشر ١٤٢٠ هـ — ١٩٩٩ م .

وأقمنا بحثنا هذا على مقدمة ، وخمسة مباحث ، هى :

١ — أهمية التربية .

٢ — مفهوم التربية فى الإسلام .

٣ — هدف « « «

٤ — وسائل « « «

٥ — خصائص « « «

والله أسأل أن يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأن يتقبل منا عملنا هذا ، خالصا لوجهه الكريم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

د/ أحمد عبده حموده الجمل

المبحث الأول

أهمية التربية

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، وسواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، لغاية جليلة وإرادة إلهية حكيمة ، يقوم الإنسان من داخلها بوظائف ومهام ، تتركز فى العبادة ، والخلافة والإعمار فى الأرض .

ورحمة من الله تعالى بالإنسان ، وعونا له على حسن القيام بذلك ، ذوده خلقيا بكل قوى العلم والوعى والإدراك ، وبآلات العمل والسعى والحركة ، وبطاقات التفاعل مع ما ومن حوله من الكون والكائنات ، وركبه تركيبا قويما فى ذاته ، ومتكاملا مع طبيعة الوجود والحياة من حوله .

ومن آيات الله تعالى فى الإنسان أنه أجرى خلقه فى أدوار وأطوار ؛ فى بطن أمه حملا جنينا[1] ، وبعد خروجه إلى الدنيا طفلا

---

(١) كما فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) المؤمنون ١٢ : ١٤ .

وليداً(١) ، وأجرى حياته الدنيوية ، على سنة العلم والتعليم ، والتأثر والتأثير ، ومكابدة التجارب والخبرات ، مرحلة فمرحلة ، وطوراً فطوراً . حتى يجتهد فى تكميل نفسه ، وتنمية ذاته ، والاستجابة الطوعية لاكتساب العلوم والمعارف والخبرات ، التى تدعمه فى مسيرة حياته ، وتيسره لما خلق له ، ويهدينا فى ذلك قوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)(٢) .

ومؤدى كل ذلك ، أن الإنسان خلق مستعداً قابلا ، مزوداً بآلات التعلم والتدرب . ولم يخلق عالما فاهما مدربا ، ضرورة أن الإنسان فى خضم تجربة الحياة بكل مستوياتها وأبعادها ، ليمارس إرادته وخياراته ، فى ساحة القرار والتقرير . والعمل والنشاط . من داخل قانون الله النافذ : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)(٣) وحتى يتكامل بنو البشر فى ماعند كل منهم من تجارب ومعارف ، وليس الحال كذلك ، فيما لو خلق الله الناس جميعا على درجة سواء من العلم والخبرة والتجربة ، وفيما لو خلقهم جميعا عالمين عارفين .

وإذا قلنا إن الإنسان وضعه هو هذا الوضع ، فإننا نقول : إن

(١) كما فى قوله تعالى : (... ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ...) من الآية ٥ من سورة الحج .

(٢) النحل ، آية ٧٨ .

(٣) الأنبياء ، من الآية ٣٥ .

سبيله إلى تحصيل العلم والمعرفة والخبرة هو التعلم والتربى والتعرض للخبرات فى كل اتجاه .

من هنا نستبين ، أن الإنسان يتشكل بالعلم والتعلم والتربية ، فهو كائن تربوى قطعا ، يمارس التربية فاعلا ومنفعلا ، آخذاً ومعطيا ، مؤثراً ومتأثراً ، ونستبين كذلك ، أن العلم والتعلم والتربية أنشطة تبدأ من الإنسان وتنتهى إليه ، وتأخذ منه مادة كيانها وكينونتها ، وأنها سبيل بنائه جسدياً وعقلياً ووجدانياً ونفسياً واجتماعياً ... الخ ، وأن التربية والتعليم هما الطريق الآمن المستقيم لتكوين الإنسان وكماله وتكامله ، وأن بناء الإنسان بالتربية والتعليم هو البناء المتين ، الذى به يحقق الإنسان مراد الله تعالى من خلقه ، فى إقامة الحياة على منهج الله تعالى ، وبناء الحضارة على نور من الله تعالى .

لا يكاد يختلف اثنان على موقع التربية من الإنسان ، ولا على موقع الإنسان من التربية ، فهى صانعة الإنسان ، وفى نفس الوقت هو صانعها ، فلا تربية ولا تعليم إلا بتسخير الله تعالى الإنسان ، ولا إنسان مكتملا فاعلا ، إلا بتربية واعية على منهج الله تعالى .

إن التربية أمرها عظيم ، وشأنها خطير ، وعطاؤها وفير ، إذ هى مفتاح شخصية الإنسان ، ومفتاح نجاحه أو سقوطه ، وصلاحه أو فساده ، وهداه أو ضلاله ، ومفتاح نكوصه أو إقباله ، فلا غرو كانت هى مفتاح قوة الحياة وضعفها ، بل قيام الحضارات وانهيارها ، ومن قبل ذلك ومن بعد هى ، مفتاح نمو طاقات الإنسان ، وتفجر ينابيع عطائه ، ومع كل ذلك ، هى مفتاح سعادته فى الدنيا والآخرة ، إذا استقامت على الحق والصواب ، مبادىء ومناهج ووسائل وغايات ،

أى إذا استقامت على سبيل من وحى السماء الهادى ، وشريعة الإسلام الغراء .

إن جدوى أى نظام تربوى ، يرتبط — لامحالة — بما يتوفر له من أسس قويمة ، ومناهج مستقيمة ، ووسائل سليمة ، وأهداف سامية كريمة ، وبما يتهيأ له من شمول وتكامل ، ومع ذلك : بما يكون عليه من وعى بطاقات الإنسان وحاجاته ، وغاياته القريبة والبعيدة ، وعلاقاته وارتباطاته .

ونقول أيضا : إن جدوى أى نظام تربوى — لامحالة — بحاجة إلى مرجعية سند ، تستجمع شرائط خاصة ، تكون له دستوراً ، يضبط قواعده ، ويحكم حركته ، ويزن أهدافه ، ويؤكد احترامه وحرمته ، ويفرض إلزامه والتزامه .

هذه المرجعية ضرورية لقيام أى نظام تربوى ، وجدواه وجديته ، وكلما اقتربت هذه المرجعية من ساحة العقيدة كلما كانت أفعل وأتم وأشمل ، ومن هنا ، فإن أى نظام تربوى حق وفاعل ، هو فى حاجة إلى عقيدة سند ، ولن تكون هذه العقيدة السند للنظام التربوى المحكم إلا الإسلام وعقيدة الإسلام ، ومصادر الإسلام (القرآن والسنة) ، والمرجعية بهذه المثابة تستجمع شرائط الجدوى والجدية ، بأجمع صورة وأتمها ، إذ أنها « تقوم على علم تام محيط بالإنسان ، علم به فى تكوينه وتطوره ، وظروفه وغاياته القريبة والبعيدة ... (و) على الرحمة بالإنسان وحبه وتكريمه ، (و) ... على إحاطة تامة بعلاقة الإنسان بالمخلوقات الأخرى ، مع إيثاره وتفضيله عليها »[١] .

(١) فى الفكر الإسلامى ، مجموعة ، ص ٣٢٥ ، الطبعة الثانية =

هذه الشروط يمكن ضمانها فى عقيدة إلهية ، مقررة من الله تعالى خالق الإنسان ، والكون والخلق جميعاً ، فى دين صحيح لم يصبه التحريف والتبديل والتغيير ، ولن يكون قطعا إلا الإسلام ، وفى نصوص كتاب كريم (لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[١] ولن يكون قطعا إلا القرآن الكريم المحفوظ بحفظ الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[٢] ، وفى نصوص صحيحة هى بيان له وتفصيل ، ولن تكون غير السنة النبوية المطهرة .

ومن داخل ذلك ، ففى « القرآن الكريم — إذا وعيناه وتدبرناه — منهاج كامل للتربية ، من حيث فلسفتها ومبادئها ، وأهدافها وأساليبها ، ووسائل التقويم فيها .

وفيه عناية كبيرة بكل مايهم التربية والفلسفة ، حيث يعالج نشوء الخليقة ونشوء الإنسان ، وطبيعته ، وحيث يؤكد وجود النظام فى المجتمع وفى الطبيعة ، وحيث يطلب تهذيب النفس ، وتقويم السلوك ، لتحقيق الأهداف التربوية السليمة ...

والقرآن الكريم لم يدع للظروف ، ولا للاجتهاد الفردى شيئاً من الأسس والمبادىء التى تنفع الناس فى أمور حياتهم الدنيا ، وفى

= ١٤١٦ هـ / ١٤١٧ هـ — ١٩٩٥ — ١٩٩٦ م جامعة الإمارات العربية المتحدة .

(١) فصلت ، آية ٤٢ .

(٢) الحجر ، آية ٩ .

الآخرة إلا أحصاه ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء)(١)

وما دامت التربية جوهرية فى حياة الناس ، فلابد أن تؤخذ فلسفتها ومبادئها من القرآن الكريم ، ولاتترك لمن تستهويهم المبادىء المستوردة. وتأسرهم الأفكار المتطرفة(٢).

والسنة النبوية المطهرة غاصة بالنصوص التربوية ، بل هى بكليتها تربية فى تربية وتهذيب فى تهذيب ، ويكفى أن رسول الله ﷺ ، هو المربى الأول فى الإسلام ، لأنه هو من ربّاه الله سبحانه وتعالى وأدّبه : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)(٣).

وقد مارس المسلمون على مدار التاريخ ، طرائق التربية ، وأنفذوا توجيهات القرآن والسنة ، عبر جهود مشكورة ، وبيئات ومؤسسات شتى ومتنوعة ، وأنتجوا فكرا تربويا عاليا ، موصولا بمصادر الإسلام وقيمه ، فتكونت مكتبة تربوية إسلامية ، لها ثراؤها ، وقيمتها التى

---

(١) الأنعام ، من الآية ٣٨ .

(٢) نحو مناهج إسلامية ، د / محمد حامد الأفندى ، ص ٥ ، ٦ ، جامعة أم القرى ، المركز العالمى للتعليم الإسلامى ، من سلسلة بحوث المؤتمر العالمى الأول للتعليم الإسلامى ، مكة المكرمة ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م . الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٣) أورده السخاوى فى (المقاصد الحسنة) ص ٢٩ ، وقال : سنده ضعيف لكن معناه صحيح ، وعنده فى رواية عن ابن مسعود مرفوعاً : إن الله أدبنى فأحسن تأديبى ، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق .

لاتنكر ، ولا تزال حلقات الفكر التربوى فى الإسلام موصولة ، وكنوز الإسلام فى التربية تنفتح أمام الجهود المخلصة ، والاجتهادات المثابرة شيئا فشيئا .

بل نحن حقيقة فى مسيس الحاجة إلى تنمية الجهود ودعمها فى هذا الإتجاه ، فى وقتنا هذا الذى يوشك بتوجهاته فى العالمية والعولمة ، أن يطمس معالم الثقافات والشعوب ، ويذيب عناصر التميز والامتياز فى كيان الأمم والحضارات .

كذلك نحن فى مسيس الحاجة إلى مكافحة تيارات المادية والعلمانية والإلحاد ، وهى تطرح برامج تربوية قاتلة ، جاءتنا وانتشرت بيننا واستحكمت فينا بكل أسف ، وإلى مقاومة سلوكيات التفلت والإباحية ، التى تعم وتطم .

نحن بحاجة إلى صنع الكثير وتقديم الكثير ، وبخاصة فى مجال التربية ، لأن التربية هى الممكن الأوحد ، والوحيد للوقاية من كل ذلك . وليس هنا لك ممكن آخر.

إن التربية هى الحافظ — بعد الله تعالى — لهويتنا الإسلامية ، وهى سلاحنا فى المقاومة والدفاع ، بل والهجوم إن أردنا ، وقد نضطر إليه .

التربية هى حارس شخصيات الإنسان والأمم والشعوب والحضارات ، ولا يقبل - نظريا أو عمليا - دعوى حيادية التربية والتعليم ، لأنهما - ببساطة - يدوران فى فلك الخصوصية والإنتماء ، ولذلك لم يقبل كبار التربويين فى العالم بفكرة : أن التعليم والتربية من المبادىء الإنسانية العالمية ، ذات التراث البشرى المشاع ، ولم يقبلوا باستيراد مناهج التعليم ،

كما هى عند الأمم والشعوب الأخرى ، ولا باستيراد العلوم والآداب التى نشأت فى أحضان مذاهب وعقائد ومفاهيم . . . لا تؤمن أمتهم بها ، لأن من شأن هذا الاستيراد العبث بمفاهيم أجيالهم وعقائدهم ، وما يريدون تنشئة أجيالهم عليه من مفاهيم وأخلاقيات .

وكذلك لم تقبل الدول ذات الاعتزاز بحضاراتها القديمة وتاريخها ومفاهيمها فى الحياة وتقاليدها وعاداتها تبعية تعليمية ، تستورد بها ما يتنافى مع ما تعتز به »[1] .

نعم نحن بحاجة إلى تربية إسلامية ، ومناهج تربوية إسلامية تظلنا وتهيمن على كل جهود التربية فى العالم الإسلامى ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثله فليعمل العاملون .

---

(١) غزو فى الصميم ، الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ، ص ١٧ ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا .

المبحث الثانى

مفهوم التربية فى الإسلام

إن تحديد المفاهيم فى البحث العلمى مرحلة هامة وضرورية ؛ هامة ، لأنه ينبغى أن نعطى تصوراً علمياً لدلالة كلمة التربية ومدلولها ، بحيث نقدم تعريفاً جيداً ، يكشف عن وضع الكلمة لغويا ، ومعناها إصطلاحيا ، وهذا شيء هام ، لأن التعريف يميز الأمور ويحددها ، ويعطى تصوراً إجمالياً لها ، حتى يكون الناظر فيها على بينة منها ابتداء ، فإن الاشتغال بالمجهول عبث .

وهى أيضاً ضرورية ، لأن تحديد المفاهيم فى البحث العلمى مطلوب قطعا ، إذ من شأنه أن يضبط عملية البحث منهجيا وموضوعيا ، ويهدى من ثمة إلى الغاية المقصودة ، ويضع الباحث فى قلب القضية محل البحث ، فلا يضل ولا يتوه ، ثم إن من شأن هذا التحديد أن يبسط الأرضية المشتركة التى يمكن أن تتلاقى عليها الآراء ، أو تفترق .

ومن ثم فإنا هنا سنحاول الوصول إلى تحديد علمى للتربية من حيث هى ، مدخلا إلى تعريف علمى للتربية فى الإسلام .

لفظة التربية فى اللغة :

كلمة التربية فى اللغة مأخوذة من (رَبَبَ) ، (ربّ) بالإدغام وفكه ، ففى (الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية)(١) مادة (ربب) : « رب كل شىء : مالكه ، والرب : اسم من أسماء الله عز وجل ، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ... وربيت القوم : سستهم ، أى كنت فوقهم ، قال أبو نصر : وهو من الربوبية ... وربّ الضيعة ، أى أصلحها وأتمها ، وربّ فلان ولده يربه ربا ، وربيه ، وتربّبه ، بمعنى ، أى رباه ، والمربوب : المربى »(١) .

وفى المعجم الوجيز : مادة (ربّ) « ربّ الولد ربا : وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه فهو راب ، والولد مربوب وربيب ... والرب : الإله المعبود والمالك والسيد والقيم والمدبر ، والجمع أرباب وربوب »(٢) .

من هذه الدلالات اللغوية لكلمة التربية ، ندرك أن الكلمة تعنى وجود طرفين : مرب ، ومربوب ، بينهما علاقة هى التربية ، وهى من نحو : السياسة ، والإصلاح والولاية والتعهد والتنمية والتأديب ، والسيادة والقوامة والتدبير ، كما ندرك من خلال هذه الدلالات المتنوعة

(١) ص ١٣٠ ، تأليف إسماعيل بن الجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

(٢) ص ٢٥٠ ، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤١٤هـ — ١٩٩٣ م ، مجمع اللغة العربية .

غلبة الوجهة العملية ، والاستمرارية لهذه العلاقة ، حيث تكون التربية تجربة متكاملة من الممارسات العملية المتراكمة ، يتقلب من خلالها المربوب فى مدارج شتى ، يؤخذ فيها بالتدرب والتعلم ، والتخلى والتحلى ، فى طريق صاعد نحو تكميل الذات ، وتزكية السلوك .

كما تدلنا المادة اللغوية أيضا ، على شمولية العملية التربوية ، فلا يخرج عنها فرد ولا جماعة ، ولا صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى ، ولا مرحلة من مراحل تطور حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، ولا ناحية من نواحى شخصيته ، كما لا يخرج عنها وسيلة أو أسلوب من أساليب التعهد والرعاية والتنمية والإصلاح .

هذا بعض ما تهدينا إليه المادة اللغوية ، وكله داخل فى صميم التربية بالمعنى العلمى الإصطلاحى : كما سنعرف .

المعنى الاصطلاحى :

لا شك أن التربية من خواص الإنسان ، وحين يطلق لفظ التربية ، ينصرف قطعا إلى الإنسان ، مُرَبٍّ ومربًّا ، وإذن فالعملية التربوية مجالها الإنسان ، وتستمد حقيقتها من كونها عملية إنسانية ، تعالج فى الإنسان كل مايدخل فى صميمه وتصميمه كإنسان ، وكل مايرتبط بالإنسان ويرتبط به الإنسان .

هذا هو وضع التربية فى بنائها الصحيح ؛ شمولية النظرة ، شمولية الوسائل ، شمولية الموضوع ، وهو الإنسان .

وما قد يحدث فى ذلك من قصور أو اضطراب ، فرجعه إلى اضطراب النظرة إلى الإنسان ذاته ، من حيث حقيقته وحاجاته ووظائفه

وأهدافه . والمجتمعات والجماعات تختلف فيما بينها فى ذلك قليلا أو كثيرا ، تبعا لاختلاف عقائدها الدينية والسياسية . . . إلخ ، ثم تعكس هذه العقائد ظلالها على الإنسان وعلى مناهج وغايات تربيته .

لكن يبقى أن تربية الإنسان تأخذ حقيقتها وأحقيتها من توازن النظرة إلى الإنسان ، وتكامل بنائه ، فى كل ما يدخل فى صميم الشخصية الإنسانية وتصميمها بحسب الفطرة التى فطره الله عليها .

من هنا نستطيع تعريف التربية بعامة ، بأنها :

عملية مركبة ، بها يخضع الإنسان ، لكل ما ينمى ذاته وشخصيته ، جسديا وعقليا وروحيا ونفسيا واجتماعياً ، ليتكامل فى ذاته ، ومع الحياة من حوله ، وفاقا لطبيعته وفطرته .

ومن الضرورى هنا ، أن نشير إلى بعض ما يمكن أن يقدم تحديداً أكثر لمفهوم التربية هذا .

١ — رغم ما يمكن أن يكون بين التعليم والتربية من تداخل ، أدناه ، أن التعليم — دون شك — هو أداة من أدوات التربية ووسيلة من وسائلها .

مع ذلك ، يظل هنا لك فرق بين التعليم والتربية من حيث الهدف ؛ فالتعليم ، يستهدف غاية عقلية تتحقق بإكساب طالب العلم مجموعة من المعارف . فى شتى المجالات فى الحياة ، وهذه الغاية هى التى يمكن أن نطلق عليها (المعرفة من أجل المعرفة) .

وإذا تحققت فقد أدت المهمة التعليمية دورها ، الذى ينحصر فى تنوير المدارك وتثقيف العقول .

وتبقى بعد ذلك مهمة أخرى ، هى المهمة التطبيقية ، أى توظيف هذه المعارف واستخدام هذه العقول فيما يعود على الإنسان المتعلم بالنفع ، فيسعد بحياته ، حين يسخر طاقتها لخدمته ، ويسيطر على كل مجالاتها بعقله واكتشافاته ... وتلك هى الغاية التى يمكن أن نطلق عليها (المعرفة من أجل المنفعة)[1] .

نحن هنا أمام أمر يكشف لنا إلى حد كبير العلاقة بين التعليم والتربية ، فيكشف لنا — من ثمة — بعدا من أبعاد التربية .

٢ — ولعلنا بحاجة الآن إلى التعرف على ما يمكن أن يكون من فرق بين العلم والتربية ، ولا شك أن بينهما فرقا ، مع التسليم بأن بينهما — فى نفس الوقت — تداخلا وارتباطا ، إذ العلم فى كل الأحوال من حيث إنه يزود بالعلوم والمعارف ، ويقدم المعرفة ، التى هى حاجة إنسانية ، وأساس للعمل والحركة — هو أساس من أسس التربية ، فى وضعها السليم ، الذى لا يكون إلا بأن يمثل العلم لها قاعدة ومنطلقا .

لكن — مع ذلك — يظل الفرق قائماً ، وهو أن العلم — فى جملته — ينحو منحى معرفياً ، فى حين أن التربية — فى جملتها — تنحو منحى تطبيقياً ، يتركز فى جعل العلم واقعاً ، يمارسه الإنسان ويعتاده ، فيحصل له ما يجوز تسميته « التربية المعرفية » ، أو « التربية العلمية » .

٣ — أن التربية فى كل الأحوال ، لا تجعل المعرفة العقلية أو المعرفة

(١) التعليم فى الإسلام ماضيه وحاضره ، د / محمد سلام مدكور ، ص ١٣ ، ١٤ ، إصدار المركز العالمى للتعليم الإسلامى بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٣ م .

التطبيقية هى الغاية الوحيدة التى تهدف إليها ، وإنما هى جانب فقط من الجوانب الإنسانية الشاملة ، والإنسان له ملكاته ومشاعره ، كما له ميوله وغرائزه ، فتربيته تربية صالحة تتعهده علمياً واجتماعياً وخلقياً ورياضيا فيشب الناشىء متفاعلا مع حياته ، متوائماً مع مجتمعه (١) .

وهنا نعثر على بعد جديد للتربية ، وهو الشمول والعموم ، بكل ما يعنيانه فى جانب الإنسان وحاجاته وعلاقاته ، وفى جانب التربية ، بكل أدواتها وآلياتها ، بحيث يبدو العلم والأخلاق والدين والقيم والجسد والروح وغيرها ، مناطق عمل جيدة للتربية .

٤ — أن التربية من حيث اختصاصها بالإنسان ، تبنيه وتنميه وتتعهده ، وهو أمانة لديها ، لا يقبل بحال أن تكون فى جانب ، والأهداف الكبرى والعقائد الأساس لدى كل أمة فى جانب آخر ، ولا يقبل هنا دعوى (حيادية) التربية والتعليم ، تلك التى لا تعدو أن تكون دعوى مشبوهة ، بل إن كلا من التربية والتعليم فى أى بلد ، ولدى أى شعب أو أمة ، ينبغى أن يكون داعيا لعقائد وقيم الشعب والأمة ، وراعيا لأهدافهما الكبرى ، وأمينا على دعم الإنسان الذى يجسد القيم ، ويحقق الأهداف ، لهذا — كان طبيعيا — أن يكون كل من التربية والتعليم فى كل بلدان العالم موجها وفق عقائد ومذاهب ومفاهيم الشعب والأمة ، ووفق تصوراتهما حول الوجود والكون والحياة والإنسان والنشأة والمصير ، ولا بأس من أن نذكر هنا ما أثبتناه قبل (٢) ، من أن التربية خادمة للخصوصية ، وأن كبار التربويين فى العالم لم يقبلوا بفكرة أن التعليم والتربية من المبادىء

(١) المرجع نفسه، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) عند حديثنا عن أهمية التربية .

الإنسانية العالمية ذات التراث البشرى المشاع ، ولم يقبلوا باستيراد مناهج التعليم ، كما هى عند الأمم والشعوب الأخرى ، ولا باستيراد العلوم والآداب التى نشأت فى أحضان مذاهب وعقائد ومفاهيم . . لا تؤمن أمتهم بها .

هذا ما هو مستقر لدى التربويين ، ويشهد به الواقع بوضوح ، من ثم فإن التربية ينبغى أن تكون حارسة للأهداف والقيم والمفاهيم ، من داخل حراستها الإنسان الذى لا يتحقق شىء من ذلك إلا به ، وبه وحده، فقط أن يخضع لعملية تربوية متكاملة ، تتوحد فى إنفاذها جميع إمكانات وأدوات الإعداد ، لدى كل أمة أو شعب .

هذه بعض الأمور التى تعين على تصور مفهوم التربية تصورا صحيحا واضحا ، فماذا عن التربية فى الإسلام ، أو مفهوم التربية فى الإسلام ؟

التربية الإسلامية :

فى ضوء ما فهمنا به التربية بعمومها ، فإن التربية فى الإسلام هى فى الأساس إعداد للإنسان الإعداد المتوازن المتكامل ، شأنها فى ذلك شأن التربية السليمة ، لكن الإنسان الذى تعده هو الإنسان المسلم ، والغاية التى تتغياها هى غاية ربانية ، وقوام المنهج الذى تستخدمه ، الالتزام بكل قيم وعقائد وتشريعات الإسلام ، ومرجع كل ذلك إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

هذا حقنا ومستحقنا ، ومنطلق التربية عندنا ، لصياغة الإنسان المسلم صياغة إيمانية ، تنمو فى كنفها جوانبه الخلقية والخُلقية ، وتتنامى فى تربتها شخصيته ، أداء لوظائفه التى تحددت له من قبل خالقه سبحانه .

ومعنى ذلك ببساطة شديدة ، أن التربية فى الإسلام هى « تربية ربانية من حيث المصدر والمنهج والهدف ، كما أن المحور الرئيس فى التربية هو الإنسان »(١) ، وهى إعداد للإنسان « فى ضوء المنهج الربانى ، الذى يضبط حياته وفق الغاية من وجوده فى هذه الحياة الدنيا ، وهى تحقيق العبودية لله تعالى ، فى جميع شئون حياته ، ومن ثم تكون هذه التنشئة إعداداً للإنسان الصالح ، وتزكية للنفس الإنسانية »(٢) .

ومن حيث إن التربية هنا تربية ربانية إيمانية ، تتأسس فى ضوء مبادئ الإسلام ، ومنهجه ، ومراد الله تعالى من خلق الإنسان ، فإنه من ثمة لا أثر فيها للفكر البشرى الوضعى ، إلا بمقدار مايبذله المفكر المسلم فى استخراج الدلالات التربوية من نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة ، وحتى الفكر فى هذا الإتجاه يكون فكراً إسلاميا موصولا بالإسلام ، موصولا بالوحى ، بالقرآن والسنة ، وإلا بمقدار مايستفيده المربى المسلم من وسائل العصر وأدواته فى إثراء وتنويع الوسائل والأساليب .

وحقيقة كل ذلك ، أن التربية فى الإسلام لاتلتقى مع الفكر الوضعى العلمانى أو الفقه التربوى الوضعى ، فى المبادىء والأصول والأهداف ، بل حتى فى الوسائل الرئيسة .

لأن التربية — كما ذكرنا — لاتقبل الحياد المزعوم ، ولأن أنظمة التربية المعاصرة حقيقة هى أنظمة علمانية ، تستبعد الدين ، وتسقطه نهائيا من بناء التربية ، وتعمل على إعداد الإنسان أساسا إعداداً دنيويا ماديا ، الأمر الذى يتعارض تماماً مع توجهات التربية فى الإسلام .

---

(١) جوانب من الواقع التربوى المعاصر فى ضوء العقيدة الإسلامية ، د/ منى عبد الله حسن داود ، ص ١٧ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ — ١٩٩٦م

(٢) نفسه ، ص ١٧ .

« إنه فى غير العالم الإسلامى ، تقوم التربية العصرية فى الشرق والغرب على أحد إفتراضين :

(أ) إما التنكر للدين .

(ب) وإما الفصل بين الدين والدنيا .

وفى كلا الإفتراضين تركز التربية ... على أمور الدنيا ، وتهمل أمور الدين .

ومن هنا جاء تحديد أهداف التربية دائماً ، بأنها : إعداد الفرد للعيش فى سلام وهناء مع نفسه ومع مجتمعه ، ويتدرج المجتمع المقصود من مجتمع القرية أو المدينة ، إلى مجتمع الدولة ، ثم إلى المجتمع العالمى »(١) ، وبعبارة مركزة : فإن التربية المعاصرة تجعل الحياة الدنيا هدفها الأول والأخير ، فى إتجاه توفير السعادة الدنيوية للإنسان .

ومن جانبنا ، فإن هذه السعادة هى نصف الطريق فى التربية الإسلامية ، إذ السعادة فى الدنيا لاتغيب عن وعى الإسلام ، ولا عن وعى التربية الإسلامية ، فى حدود الضوابط والمعايير الربانية ، لكن المستوى الأتم والأبقى من السعادة ، لايغيب كذلك عن وعى الإسلام ، ولا عن وعى التربية الإسلامية ألا وهو السعادة الأبدية الحقة ، فى الآخرة ، بل هى النصف الذى يعطى للنصف الأول معنى ومبنى ، ففى الإسلام الحكيم لاقيمة للدنيا إلا بمقدار ماتقدمه للآخرة ، وحظ الإنسان من الدنيا سعادة وهناءً ، يتضاءل كثيراً أمام حظة الأولى منها فى الآخرة (وابتغ فيما آتاك الله

---

(١) نحو مناهج إسلامية ، د/ محمد حامد الأفندى ، ص ٧ ، مرجع سابق .

الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا)(١) ، (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)(٢) ، (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)(٣) ، (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)(٤) .

هذه السعادة الكاملة ، لأنها الدائمة والخالية من الآلام والمعاناة ، لا تتوفر إلا فى الإستجابة لمفردات منهج إسلامى ربانى تربوى ، هادف إلى تنشئة وإعداد « الإنسان الصالح ، الذى يعبد الله تعالى حق عبادته ، ويعمر الأرض وفق شريعته ، ويسخرها لخدمة العقيدة وفق منهجه »(٥) .

إنها التربية التى « تجعل الإيمان متغلغلا فى كل جوانب شخصية (الإنسان) وأن تبعث فى وجدانه حب الإسلام والتعلق به ، وتمكنه من اتباع القرآن والسنة ، وتحكيم المعايير الإسلامية فى حياته ، برغبة صادقة ، وإقبال نابع من مخالطة بشاشة الإيمان لقلبه ، حتى يحقق فى ذات نفسه المكانة التى هيأها الله له ، بوصفه الخليفة الذى وعده الله تعالى بتحقيق السيطرة على هذا الكون »(٦) .

---

(١) القصص ، من الآية ٧٧.

(٢) العنكبوت ، من الآية ٦٤ .

(٣) الكهف ، الآية ٤٦ .

(٤) آل عمران ، آية ١٤ .

(٥) نحو مناهج إسلامية ص ٧ ، مرجع سابق .

(٦) غزو فى الصميم ص ٢٤٢ ، مرجع سابق .

من كل ذلك ، نستشعر خصوصية التربية فى الإسلام ، ونضيف : إنه مع التسليم بأن التربية الدينية فى الأديان والعقائد الأخرى ، تحاول أن توازن العملية التربوية العلمانية ، فتقدم إجتهادات تربوية ، تنحو منحى الروحانية والأخروية والإيمانية ، لكن تظل الخصوصية الإسلامية فى التربية ، لأن هذه العقائد والأديان فى مجموعها تتكىء على الجانب الروحى ، فلا تقطع إلا نصف الطريق ، ثم إنها وهى توازن - مادية العلمانية بروحانية الدين - تعترف بالمناهج العلمانية وتقرها ، لأنها - ببساطة - لا تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك ، حيث لا تملك إمكانية سياسة الدنيا ، ولا ترى أن مهمتها ذلك فترضى بالنواحى الروحانية الأخروية ، وإذ هى كذلك ، فهى تقر الإزدواجية والثنائية فى العملية التربوية ، بحيث يوجد منهجان ونظامان للتربية ، متعارضان ومتقابلان : منهج تربوى علمانى دنيوى ، وآخر دينى أخروى .

لكن التربية الإسلامية لا تسقط فى كل هذه المهاوى ، لأنها تعبير عن شمول الإسلام ، وشمول نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وتعبير عن عقيدة الإسلام التى لا تنفصل فيها المادة عن الروح ، ولا الدنيا عن الآخرة ، وإن كانت الآخرة خيراً من الأولى ، والباقيات الصالحات خيراً من الدنيا ونعيمها .

لا نظن بعد ذلك إلا أن الأمر قد وضح - إلى حد كبير - فى شأن التربية فى الإسلام ، مما يمهد لأن نقدم مفهوما أو تعريفاً لها ، يتركز فى : تنمية الذات الإنسانية تنمية متوازنة فى ضوء المنهج الربانى ، ووفق الغاية من خلق الإنسان ، وهى تحقيق العبودية لله تعالى ، بطاعته وإنفاذ مراده سبحانه فى الخلافة فى الأرض وإعمارها ، ولزوم الصالحات .

المبحث الثالث

هدف التربية فى الإسلام

أكدنا سابقا، على أن الإنسان هو المحور الذى تتحرك عليه أنظمة التربية فى الإسلام وخارج الإسلام، وقد سبقت الإرادة الإلهية بأن يكون الإنسان هو مركز الحياة على وجه الأرض، وقلب حركتها وتحركها، إعتناء به، وعونا له على القيام بالوظيفة الأم له، وهى (العبادة) وما تفرضه من واجبات ومهام، تتعلق بالخلافة والإعمار والتسخير والتقوى . . . ، وهـذه الوظيفة الأم ويجوانبها تلك، واضحة تماما فى القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)(1).

وقوله تعالى: (إنى جاعل فى الأرض خليفة)(2)، وقوله تعالى: (يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم

(1) الذاريات، آية ٥٦، ٥٧.

(2) البقرة، من الآية ٣٠.

تتقون»(1)، وقوله تعالى: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . . .)(2).

والعبادة من حيث هى الوظيفة الأم للإنسان على الأرض، لا تؤخذ بالمعنى الضيق، وهو العبادات المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج، فتلك لا شك هى أصل العبادات فى الإسلام، ولكنها ليست كل العبادة، ولو كان ذلك المفهوم الضيق للعبادة هو المتعين، لكان المطلوب من الإنسان فقط هو هذه العبادات.

لكن الأمر فى وضعه الإسلامى الصحيح، يتسع ليشمل حركة الإنسان وتقلباته فى الحياة، حيث «يتطلب الإسلام من المسلم أن يكون لله فى كل ما يأخذ ويدع، وما يسكن وما يتحرك، وما يكبر ويصغر .. من كل ما يتعلق بوجوده، حيا أو ميتا، يقول الله تعالى: (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . . .) . . .

ومن هنا يلزم القول بأن العبادة فى الإسلام لا تنعزل فى جانب (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، كلا. إنه بالنسبة لله تعالى ليس هناك قيصر، ولا ينبغى أن يكون هناك من يتوجه به إلى غير الله . . .

إن كل عمل يقوم به المسلم، أو نية يعقد عليها قلبه، أو كلمة يجهر أو يسر بها، تصبح عبادة، إذا توجه بها إلى الله سبحانه وتعالى بشروطه ـ

(1) البقرة، آية ٢١.

(2) لقمان، صدر الآية ٢٠.

- جل شأنه - يقول الرسول ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، وأفضلها قول - لا إله إلا الله - وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)[1] .

إلا أن هذا الشمول لم يترك هملا ، وإنما أهتمت الشريعة بتفصيل أنواع ، كما أهتمت بالإشارة إلى أنواع ، ووضعت القواعد للحكم على أنواع ، وأرسلت الأمر فى أعمال المسلم جميعها ، ليحصل الإجتهاد منه فى جعلها عبادات ، عن طريق النية ، وفقا لتلك القواعد العامة »[2] .

ومن داخل هذا الشمول الشامل . والعموم العام ، نرى العبادة التى هى مراد الله تعالى من خلق الإنسان على الأرض . تشمل « نشاط الإنسان كله ، من اعتقاد وفكر وشعور وتصور وعمل ، ما دام الإنسان يتوجه بهذا النشاط إلى الله تعالى ويلتزم فيه شرعه ، ويسير على منهجه . . .

وعلى ذلك فإن عمارة الأرض ، وتسخير ما أودع الله فيها من ثروات وطاقات وابتغاء مابثه على ظهرها من أرزاق ، وما يلزم لذلك من التعرف على سنن الله فى الكون . والعلم بخواص المادة ، وطرق الإستفادة منها فى خدمة العقيدة ونشر حقائق الإسلام ، وتحقيق الخير والفلاح للناس .

كل ذلك يعد عبادة يتقرب بها العلماء والباحثون إلى الله تعالى ، وطاعة يثاب عليها الناظرون فى الكون أو المكتشفون للقوانين التى

---

(١) متفق عليه .

(٢) فى الفكر الإسلامى، ص ١٣٠، مرجع سابق .

تربط بين أجزائه ، والمستنبطون لوسائل تسخيرها لخير الناس ومنفعتهم »[1] .

ويصير الزارع والصانع والتاجر وطالب العلم ، وكل من يؤدى عملا نافعا ، منضبطا على ضوابط الشرع عابداً ، وعمله عبادة ، ويستطيع المسلم - من ثمة - أن تكون حياته كلها ، وأحواله كلها عبادة ، بل إن العبادات المخصوصة من صوم وصلاة وحج وزكاة ، لها آثار نفسية وإجتماعية وسلوكية فى حياة فاعلها وحياة من حوله ، وإذا كانت هذه العبادات المخصوصة تمثل ما يسمى (فرض العين) لدى الفقهاء ، فإن ما يسمى (فرض الكفاية) تمثله أمور كثيرة ، تشمل كل ما هو مطلوب للناس فى حياتهم ، ويؤدى إهماله إلى اضطراب حياتهم ، وضعف أوضاعهم ، فلابد من جماعة على الأقل تمارس أنشطة وألوان ما تتطلبه حياة الناس ، « وقد غفل المسلمون - فى العصر الحديث - عن الحكم الشرعى لأمور أخذوا يصنفونها تحت عناوين مستحدثة ، لا تشعر بصلتها بواجباتهم الشرعية « كأن يقولوا عن زراعة القمح بدلا من أستيراده : إنه واجب من واجبات التخطيط والإدارة ، أو يقولوا مثل ذلك عن صناعة السلاح ، أو عن تكنولوجيا الأقمار الصناعية ، أو عن هندسة المدن ، أو عن الكيمياء الحيوية ، أو عن الهندسة الوراثية ، أو عن طب الأبدان ، أو سياسة الإعلام ، أو بناء المفاعلات الذرية ، أو قيادة الطائرات أو إصلاح السيارات . . . الخ .

ومن هنا يقع المجتمع فى معصية التفريط فى هذه الأمور والجهل بها ، ويصبح عالة فيها على أعدائه .

---

(١) غزو فى الصميم ، ص ٢٢٥، مرجع سابق .

إن المجتمع بذلك يكون قد أسقط فرضا من الفرائض ، أو واجبا من الواجبات ، أو عبادة من العبادات التى تلزمه بحكم الشرع ، غاية مافى الأمر أنها لاتجب على كل فرد من أفراد المجتمع ، فهى ليست فرض عين ، ولكنها تجب على هذا المجتمع على الشيوع »(١) .

وإذا كانت عبادات فرض العين والكفاية هذه تمثل فى وجهتها الإيجابية مايمكن تسميته (عبادات الفعل أو العبادات الإيجابية) ، فإن الوجه الآخر من العبادة فى الإسلام يأخذ أهمية بالغة ، وهو مايمكن تسميته (عبادات الإمتناع عن المنكر) أو (العبادات السلبية) .

إن عبادات الإمتناع عن المنكر هى شطر العبادة فى الإسلام قطعا ، وعلى نفس درجة الأهمية إن لم تتفوق ، وعلى نفس درجة المطلوبية إن لم تتقدم .

« فأنت إذا انتهيت عن المنكر مستحضراً الإنصياع لأمر الله ونهيه ، فأنت حينئذ فى عبادة ، لامراء .

أنت فى طاعة وعبادة إذ تمتنع - بارادة وتوجه إلى الله تعالى - عن السرقة والزنا والرشوة ، وشرب الخمر ولعب القمار ، وأكل الربا وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وقتل النفس بغير حق ، وعق الوالدين ، وقطع الأرحام ، وخيانة العهد ، واحتكار الطعام ، وغش التجارة ، وغش الإمتحان ، والإخلال بالأمانة ، والإخلال بالنظام ، وقذف المحصنات ، والجهر بالسوء من القول ، وفحش الكلام ، وفحش الفعل ، وسوء النية ... ألخ »(٢) .

---

(١) الفكر الإسلامى ، مجموعة ص ٩٣ ، ٩٤ ط الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م ، من مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة .

(٢) نفسه ، ص ٩٥ .

إن الترك فى كل هذا وغيره مما نهى الله سبحانه وتعالى ورسوله عنه ، وقبحاه ونفرا منه ، ومما هو موصوم فى القرآن والسنة بـ (الحرام والخبيث ، والشر ، والمنكر ، والسوء) وغيرها ، لاشك هو عبادة ، لأنه طاعة لله تعالى ، ومناط الثواب منه سبحانه .

كما تشمل العبادة فى الإسلام عبادات الجوارح والقلوب والعقول والإرادات ، والأجساد والأرواح ... ألخ ، وهى وإن تداخلت أعمالها مع جوانب العبادات السابقة ، إلا أنه فى التصنيف العام للعبادة ، يمكن إبرازها كلون من ألوانها بالمفهوم الشامل للعبادة .

وفى كل الأحوال ، فإن عبادات الفعل ، هى عبادات رغم تدرجها من الواجب إلى المندوب إلى المباح ، وعبادات الترك ، هى عبادات رغم تدرجها من الحرام إلى المكروه إلى ترك الأولى ، فإن المسلم معرض لها جميعاً ، ويمكنه أن يحصل من العبادة بمقدار همته وإقباله وأبتغائه مرضاة الله تعالى .

على هذا النحو ، وتأسيسا على ذلك ، فإن العبادة بهذا الشمول والتنوع تمثل حقيقة عقدية إيمانية ، ترتبط بقضية خالق الإنسان ، وبمراد الله تعالى من هـذا الخلق ، ومن ثم يعود الأمر برمته إلى العقيدة ، حيث يكون المخلوق عند مراد الخالق ، أى يكون عابداً لله تعالى ، قائما بواجبات العبادة فى كل توجه واتجاه .

ومن حيث إن العقيدة تفرض العبادة ، فإن العبادة تفرض كل مايحقق الطاعة لله تعالى ، فى كل ما أمر ونهى ، وأحل وحرم ، وحسّن وقبح ورغّب ورهّب ، وأباح ومنع ، وبعبارة مركزة : أنهـا تفرض الشريعة والأخلاق والقيم والنظم والعبادات والمعاملات والعمل والسعى

وفعل الخير وترك الفساد والإفساد ، وكل ما يرضى الله تعالى ويسعد الإنسان ويجمّل الحياة .

ولأن الإنسان أمام ذلك كله وجها لوجه ، وهى أمور عظام وثقال ، فقد شاءت إرادة الله تعالى ونفذت قدرته فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وتكوينه أتم التكوين ، ليكون على مستوى المسئولية ، وقدْر المهمة ، ثم أعانه عليها ، فسخر له الكون بعناصره وكائناته ، وهيأه فطريا للعلم والتعليم والتعلم واكتساب الخبرات والإستفادة من التجارب والأحداث ، وجعل له ذاكرة تاريخية تختزن الماضى ، ليستفيد به الحاضر والمستقبل ، وهداه النجدين ، عبر رسالات سماوية حكيمة ، أختتمت بالرسالة الرحمة وبرسول الرحمة ﷺ ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(١) .

ويهدينا كل ذلك إلى تصور جيد للتربية فى الإسلام ، لا يخرج عن : أن التربية فى الإسلام عنوان على كل : ما يؤهل الإنسان لأن يكون عابداً لله تعالى ، فيحقق مراد الله تعالى من خلقه ، وهى : من ثمة تعبير عن منهج الإسلام فى تنشئة الإنسان ورعايته وتوجيهه نحو كل ما يسعده دنيا وأخرى ، ضمن مراد الله تعالى منه ومن إيجاده .

ونقولها هنا إحتسابا لوجه الله تعالى :

إن مشكلة المسلمين الآن هى ضعف الإلتحام بدين الله تعالى ، ضعفا آتيا من جهة العمل قبل أن يكون من جهة العلم .

فالمسلمون لا تنقصهم الناحية المعرفية ، بل إنهم يعانون من تكدس معرفى ، يتراكم يوما بعد يوم عبر إنتاج كثيف من المؤلفات والكتابات .

(١) الأنبياء ، آية ١٠٧ .

ولكن تنقصهم الناحية العملية التربوية ، ناحية الإنتفاع والتطبيق ، فالكلام كثير والإنتاج المعرفى وفير ، ومع ذلك هم فى شر مستطير ، لغياب التربية الإسلامية ، وغياب الوعى بالقيمة العملية التطبيقية لتشريعات الإسلام ، فانحسر مفهوم العبادة ، فى العبادات المخصوصة ، وحتى هذه صارت لا تعطى أثرها المرغوب ، لغياب التربية عنها ، وغيابها عن التربية .

نحن قوّالون لا فعالون ، ناعقون لا عاملون ، عالمون لا تربويون ، وهنا مكمن المشكلة ، وهنا مكمن الخطورة . المشكلة هى التربية ، ثم هى التربية ، ومن أسف : أن المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى ، وهى قليلة لا تفعل شيئا ، بل ولا تغار ، لأنها غرقت فى الجانب المعرفى الفكرى ، ففرق بذلك منها الجانب التربوى — فلا حول ولا قوة إلا بالله .

المبحث الرابع

وسائل التربية فى الإسلام

بين يدى هذا العنوان ، نؤكد بداية على الآتى :

١ — أن الإنسان فى المنظور الإسلامى كل مترابط ، تكتمل إنسانيته بمقدار تكامل جوانب شخصيته وتوازنها .

٢ — أن التعامل مع الإنسان ، ينبغى أن يكون على مستوى الوعى التام بذلك ، حتى لا يضل ، فيقصرون دون الغاية ، أو يشوه الذات فيضيعها ويبددها .

٣ — أن التربية إن كانت تتأسس على مبادىء ، وتخدم أهدافا وغايات ، فإنها تتطلب وسائل تنفيذ ، وأساليب تحقيق ، ضرورة أن الوسيلة المناسبة ، هى أداة تفعيل المبادىء ، وتجسيد الغايات .

٤ — أن التربية فى الإسلام — فى ضوء ما ذكرنا وما سنذكر — تعتمد كل وسيلة جيدة وشريفة ، حيث إن شرف الغاية لا ينفصل عن شرف الوسيلة فى الإسلام ، ولا مجال للشعار الزائف : [الغاية تبرر الوسيلة] .

والوسيلة الجيدة هنا ، هى كل وسيلة أقرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فى نطاق العلم والتعليم والتطبيق والتدريب ... إلخ ، وكل وسيلة أقرها الفكر الإسلامى الحق ، وكل وسيلة أثمرتها جهود بشرية على مدار التاريخ ، أثبتت جدواها وجديتها ، بل

وكل وسيلة حقة يسفر عنها جهد العلماء والمفكرين والتربويين فى المستقبل القريب والبعيد .

نقول ذلك ، ويؤكده :

(أ) أن الوسائل فى الإسلام هى محل اجتهاد ، حيث لا اجتهاد فى المبادىء والمقاصد والغايات . وللمسلم أن يبتدع ، أو يراجع ، أو يعدل ، أو يبدل فى الوسائل والمناهج والأساليب ، فى إطار المبادىء والمقاصد ، إذ هى إلهية وحيية قطعا لا تقبل اجتهادا ، فتكون عرضة للتغيير ، الذى يفقدها أهم خصائصها ، وهى الثبات والاستمرار .

إن الوسائل موكولة قطعا إلى اجتهادات المجتهدين ، وليس فى ذلك مناقضة لأصل من أصول الإسلام ، بل لولى الأمر فى المسلمين ، وأهل الاختصاص أن يضع هو وهم نظاما تربوية ثابتة المصدر والغاية ، مرنة الوسيلة ، فقط ينبغى أن تكون فى دائرة التشريع ، التى تسع كل نظام وقانون عادل « أى أن وضع تلك الوسائل ليس مطلقا ، ولكن يكون بحيث لا يخرج عن المقاصد »[1] .

(ب) أن هذا الذى قررنا سابقا فى شأن الوسائل هو المعنى الصحيح لحديث الرسول ﷺ فى تأبير النخل : [أنتم أعلم بشئون دنياكم][2] ، حيث لا يصح شمول معنى هذا الحديث للمبادىء والمقاصد ، مع الوسائل ، كما يزعم دعاة العلمانية فى العالم الاسلامى ، دعما لزعمهم أن العلمانية لا تتعارض مع الإسلام ، حيث أوكل الحديث للناس شئون دنياهم

---

(١) فى الفكر الاسلامى ، ص ٣٦٦ ، مرجع سابق .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث عائشة رضى الله عنها .

جميعا ولم يـكلها إلى الدين . فيسرى الاجتهاد على كل ما يرتبط بدنيا الناس ، وبالناس فى دنياهم .

إن الفهم السديد للحديث هو ما ذكرنا ، من اختصاصه بالوسائل(١) وبها فقط .

٥ — تؤمن التربية الإسلامية بالأهداف المرحلية فى التنشئة والنمو والاكتمال ، وصولا إلى الهدف الأساسى وهو العبادة ، أو الأهداف المرحلية من أجل الهدف النهائى ، أو من داخل الهدف النهائى ، ودليلنا فى ذلك ما نوهنا عنه آنفا ، من إرادة الحق تبارك وتعالى أن يبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم يتدرج فى مراحل متتابعة : جنينا ، ثم وليدا ، إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وبالرغم من أن هذه مراحل حيوية ، فلا شك أن كل مرحلة تقتضى مستوى تربويا مناسبا ، ووسائل تربوية موافقة ، ومن قبل تستدعى هدفا مرحليا ، ولا شك أن لذلك وضعه فى صياغة المناهج التربوية الإسلامية .

٦ — تؤمن التربية الإسلامية بأثر البيئة وتأثيرها على الإنسان ، حيث نجد وفرة من نصوص القرآن والسنة تلمس تأثير البيئة ، وتدخلها فى صياغة الإنسان ، من ذلك ما ورد فى صحيح السنة من قول النبى ﷺ : [ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ...](٢) الحديث ، ففيه الإشارة إلى بيئة

(١) راجع تفصيلا أكثر فى : فى الفكر الإسلامى ، ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الأسرة والمنزل ، ومن قوله ﷺ فى حديث طويل : [سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... الحديث وذكر منهم : [وشاب نشأ فى عبادة الله](١) .

ومن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم ، من قوله تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ...)(٢) الآية ، وإحصان الفرج لاشك يعود فيما يعود إلى البيئة التى احتوتها عليها السلام ، فيما أشار إليه قوله تعالى : (.. وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ...)(٣) ، ثم إنه لا ينبغى أن ننسى قوله ﷺ ، فى شأن البيئة ومسئولية المسلم تجاهها ، [كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته](٤) .

والإقرار بالبيئة وتأثيرها فى التربية . يفرض التعامل مع عناصرها وألوانها ، بالوسائل الفاعلة ، ولا يمنع من اتخاذ البيئة نفسها وسيلة تربوية .

٧ — أن تأثير البيئة هذا التأثير ، لا يلغى عنصر الحسم فى الشخصية بمعنى أن تأثير البيئة ليس يصل إلى حد الجبرية ، التى تبعد الإنسان تماما عن مسئوليته أمام الله تعالى ، بل الإسلام — وهو يعترف بالبيئة وتأثيرها — يترك عنصر الحسم للشخصية الفردية ، أى للإنسان ،

(١) متفق عليه .

(٢) التحريم ، من الآية ١٢ .

(٣) آل عمران ، من الآية ٣٧ .

(٤) متفق عليه .

وإرادته ، فالبيئة تؤثر لكن لا يصل التأثير إلى حد إلغاء الإرادة تماما ، وذلك يفيد قطعا فى صياغة مناهج ، ويتطلب من ثمة وسائل وآليات

« والله سبحانه وتعالى يضرب لنا أمثلة على ذلك فى آخر سورة التحريم .

ففى . . . (مثال) نجد امرأتين تكفران وهما فى بيت النبوة (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط) .

وفى . . . (مثال آخر) نجد امرأة تؤمن وهى فى قلعة الكفر ، (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون)(١) .

٨ — أن الإسلام يقر كذلك بأثر الوراثة وبفاعليتها فى صياغة الإنسان ، وهنا يأتى التوجيه النبوى الكريم [تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس](٢) ، لكن ليس إلى حد الجبرية المسقطة للمسئولية والإرادة ، بل يجعل لشخصية الإنسان عنصر الحسم هنا أيضا ، ضمن البلاغ القرآنى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(٣) ، وضمن البلاغ النبوى : [ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب](٤) .

٩ — أن الإسلام ، يقر إمكانية تغيير القيم وتغيير السلوك ، وقد

---

(١) فى الفكر الإسلامى ، ص ٣٨٦ ، مرجع سابق .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ، والحاكم فى المستدرك وصححه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) الرعد ، من الآية ١١ .

(٤) متفق عليه .

رأينا فى الآية قبل إمكانية تغيير ما فى النفس ، من كل ما يحتويه داخل الإنسان من عقائد وقيم ومفاهيم ، والدعوة الإسلامية بكليتها دعوة إلى التغيير والتبديل ، ولو كان ذلك غير ممكن ، فلماذا دعوات الأنبياء عليهم السلام ، ودعوات المصلحين ، ودعوة أتباع الأنبياء عليهم السلام إلى الله تعالى على بصيرة ؟.

إن المنطلق هنا : هو إمكانية التغيير ، وفى الحديث الشريف : [من رأى منكم منكرا فليغيره . . .](١) الحديث .

هذا بعض ما يرتبط بالتربية فى الإسلام ، قدمناه بين يدى وسائل التربية فى الإسلامية لنقول :

إن كل وسيلة عرفت أو ستعرف ، عندنا أو عند غيرنا ، مورست أو لم تمارس . قديمة أو مستحدثة ، جاءت فى القرآن وفى السنة أو فى الفكر الإسلامى ، للصغير أو للكبير ، للذكر أو للأنثى . . . إلخ ، هى وسيلة معتمدة فى منهج التربية الإسلامية ، فقط أن تكون شريفة ، منضبطة على قواعد الشرع وأحكامه ، آخذة بالإنسان نحو النمو والتكامل ، ومسهمة فى دفعة نحو إنفاذ مراد الله تعالى من خلقه .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يدخل فى وسائل التربية فى الإسلام : التعليم بكل مراحله وبيئاته ومستوياته وتخصصاته ، وأدوات وبيئات التثقيف العام والخاص ، وآليات التوجيه المباشر وغير المباشر ، والإعلام بكل صوره وأشكاله ، والدعوة بكل أساليبها ، والأسرة والبيت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى بكر رضى الله عنه ، والترمذى فى سننه عن أبى سعيد .

والنوادى الرياضية والثقافية ، والمؤسسات الاجتماعية ، والاتحادات والتنظيمات النوعية ، ومرافق العمل والخدمات والإنتاج ، والجمعيات الأهلية ، والدوائر الأدبية والفكرية والعلمية والفنية ، والمكتبات العامة والخاصة ، والجامع والمسجد ، والمراكز الثقافية ، ودوائر الإرشاد . كل ذلك وسائل وبيئات ذات إمكانات يمكن أن توظف تربوياً لدعم الإنسان فى نشأته ومراحل حياته ، بحيث يحاط بجو تربوى سليم ، تتداعم فيه آليات التربية ، دون أن نرى ما نراه الآن ، من تضارب وتعارض ، فى الخطاب التربوى فى بلاد المسلمين ، وفى العمل التربوى كذلك .

ولا بأس من الاستفادة من تقنيات العصر ، بل تجب الاستفادة بها وفى مقدمتها : الحاسوب ، وشبكة المعلومات العالمية [الانترنيت] .

المبحث الخامس

خصائص التربية فى الإسلام

هنا نحاول التعرف على أبرز خصائص التربية فى الإسلام ، وأوضح خواصها ، من زاوية الإيمان بخصوصية التربية الإسلامية ، خصوصية ذاتية ، حين تضع ، المسألة التربوية برمتها داخل مبادىء الإسلام ، وأصوله العقدية والتشريعية والأخلاقية ، وداخل الهدف الإيمانى لوجود الإنسان والحياة .

وخصوصية نسبية إضافية ، حين لاترفض أنظمة التربية الأخرى ، دينية كانت أو علمانية ، إلا بمقدار ماتتناقض هذه الأنظمة مع مبادئها وأهدافها ، وما يمكن أن يقع من ذلك فى جانب بعض الوسائل ، وحين لاترفض فتقبل ، فإن ماتقبله تصبغه بالصبغة الإسلامية ، وتوظفه ضمن عناصرها الذاتية .

فى ضوء هذين المستويين من الخصوصية للتربية ، نجتهد - بعون الله تعالى - فى تجميع وتقديم مايبرز هذه الخصوصية ويدعمها ، وصولا إلى تصور جيد للتربية فى الإسلام ، يسهم فى صياغة وصناعة مناهج تربوية إسلامية ثرية ، تضبط وتوجه الجهود التربوية فى مصر والعالم الإسلامى . فلنبدأ مستعينين بالله تعالى وحوله وقوته ، ثم قبل أن نبدأ ننبه على أمور :

١ — أن قليلا أو كثيراً مما عالجناه سابقاً[١]، له علاقة بما سوف نعالجه هنا، وقد يحدث تكرار - أحياناً - ولكنه على كل حال سيكون محدوداً، وعلى قدر الحاجة.

٢ — حيث ذلك كذلك، فإن بعض ماسبق، قد يمثل معالم للتربية الإسلامية، وتكتمل الصورة بمراعاته، مع ماسنذكر هنا إن شاء الله.

٣ — أن ماسنذكره هنا، يظل فى إطار الاجتهاد، وفى حدود مايسعه جهدنا المتواضع، وما توفره لنا المراجع المتاحة، والوقت المحدود.

٤ — أن سوق بعض المعالم قد تحكمه اعتبارات منطقية، من حيث الترتيب والترابط، والبعض الآخر، قد لايخضع لذلك.

ونبدأ الآن - بعون الله تعالى - فى تناول أبرز خصائص التربية فى الإسلام، والتى يمكن تركيزها فى معالم سبعة أساسية، هى:

١ — الإسلامية
٢ — نبذ الازدواجية
٣ — الإنسانية
٤ — الربانية
٥ — التدرج والترقى
٦ — العموم والشمول
٧ — ذات منطلق عقدى.

(١) فى حديثنا عن أهمية التربية فى المقدمة، ومفهوم التربية، وأهداف التربية، ووسائل التربية.

أولا - الإسلامية :

ونعنى بذلك أن التربية فى الإسلام، يتحتم أن تلقب بـ (الإسلامية) وهى حرية بأن تلقب بذلك دون سـواه، وبعبارة أخرى: هى بالإسلامية أولى منها بـ (الدينية)، بل أولى منها بـ (الدينية الإسلامية). وذلك أمر هام وأساسى، ويمثل خصوصية فائقة للتربية فى الإسلام، للاعتبارات الآتية:

١ — أن وسمها بـ (الدينية)، أو حتى بـ (الدينية الإسلامية)، يوهم أنهـا تتركز فى الجانب الروحى الوجدانى من الإنسان، وتعمل لحساب الحياة الآخرة، كما هو الشأن فى أنظمة التربية فى الديانات والعقائد والملل الأخرى، إذ كلها تعمل فى إطار تسويغ الجانب الروحى، وتقف عنده، ولا كذلك التربية فى الإسلام، لأن هـذه كلها - فى جملتها - تتكىء على الجانب الروحى، وهو مايذهب بعنايتها بالجانب الآخر فى الإنسان وفى الحياة.

٢ — أن مايشذ عن ذلك من هذه الديانات، يقع فى مأزق المادية والدنيوية، فيبتعد عن (الدينية)، ويقترب من (الدنيوية)، ولا كذلك فى التربية فى الإسلام.

٣ — أن مناهج التربوية الوضعية هى جميعاً مناهج (علمانية) تتجاهل الدين أو تسقطه، ولايجدى فى المقابل أن نقول عن مناهجنا إنها (دينية)، لكبح جماح العلمانية، فنقع فيما تريد العلمانية أن نقع فيه، وهو أن الدين لاعلاقة له بالحياة، وحيث رفضنا الدينية المغرقة فى الروحانية، فإننا نرفض كذلك الدينية المقابلة للدنيوية. لأن التربية فى الإسلام لاتعرف الدينية بهذا الاعتبار أو ذاك.

٤ – أن الإسلام وإن كان فى حقيقته دينا سماويا موحى به من الله تعالى ، ومنطلقه – من ثمة – منطلق دينى ، لكن الدين المرضى عند الله تعالى هو الإسلام ، إذ هو الدين ، ولا يقبل غيره ، مصداقا لقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)(١) وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)(٢) ، وهنا ينبغى الإتباع لما وجه إليه تعالى ، من أن الدين هو الإسلام . ولنا أن نفهم أن كل ماهو عند الله تعالى هو إسلام ، وأن الإسلام تعبير عن علاقة بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب ، فى كل ماتتسع له هذه العلاقة ، وهى علاقة الإستسلام ، وعلاقة العبودية والطاعة لله تعالى ، ضمن منظومة كاملة من الأوامر والنواهى ، و (إفعل ولا تفعل) ، والشمول والإستيعاب لكل حركة المخلوق فى علاقته مع الخالق جل وعلا . إن حصر الدين فى الإسلام ليس كحصر الإسلام فى الدين ، فيما لو قيل : (إن الإسلام هو الدين) ، حيث يتوقف مفهوم الإسلام عند مدلول الدين ، لكن حصر الدين فى الإسلام لا يتوقف عند هذا المدلول ، بل ينفتح على كل مايجسد علاقة الاستسلام لله تعالى ، والاستجابة لمراده سبحانه من خلق الكون والإنسان والحياة . وفى ضوء ذلك يبقى لوصف التربية بالإسلامية دلالته ومغزاه ، دلالة الشمول لجوانب الإنسان وجوانب الحياة ، وعناصر العلاقات .

٥ – أن التربية إذا لقبت بالدينية ، فإنه فوق مايشعر به من العناية بالروحى والأخروى ، فإنه يشعر بأن أمرها بيد رجل الدين وحده ، والأمر كذلك بالفعل فى مايتعلق بالتربية فى الأديان والملل خارج الإسلام ،

(١) آل عمران ، صدر الآية ١٩ .

(٢) آل عمران ، آية ٨٥ .

إذا القائمون بها من حيث إنها دينية هم رجال الدين ، ومن معهم من المبشرين أمثالهم ، ولا كذلك فى الإسلام ، ولا كذلك التربية فى الإسلام ، بل وجود رجل فى الإسلام (يدعى رجل الدين) مسألة تاريخية ، وعلى معنى أنه من قد درس علوم الدين ووسائل ومقاصد ووقف عليها همه واهتمامه ، ومع ذلك تبقى المسألة فى هذا الإتجاه أمراً متاحا للجميع ، على ساحة الإسلام الفسيحة .

٦ – أن إستخدام كلمة الإسلامية لقبا للعملية التربوية ، بل ولغيرها من أنظمة الإسلام ومناهجه ، يؤكد الذاتية الإسلامية والصبغة الإسلامية ، والخصوصية الإسلامية ، فى عالم تغمره توجهات العولمة ، بما ترغبه من إزاحة التمايزات الثقافية والحضارية ، ليذوب الجميع فى بوتقة إستعمار جديد ، واحتواء جديد ، لحساب قوى إقتصادية وسياسية عارمة .

٧ – لكل ذلك ، هى تربية إسلامية ، لادينية ولا علمانية ، بل هى نسق فريد بين كل مناهج التربية فى شرق وغرب وشمال وجنوب العالم ، لأنها واحد من أنظمة الإسلام الجامع الكامل الشامل لخيرى الدنيا والآخرة .

هى إسلامية ، وحيث هى كذلك ، فإنها تقوم على الإهتمام بأمور الدنيا والدين معا ، وتجعل رعاية أمور الدين وأداءها على خير وجه بابا للسلام ، وعيش الإنسان فى هناء مع نفسه ومجتمعه والإنسانية ، وفى رضى وطاعة مع ربه سبحانه وتعالى .

وإذ هى إسلامية ، فهى تعتبر الحياة بكل مافيها وسيلة لاغاية ، وجسرا

يعبر عليه الإنسان إلى حياة الأمن والخلود ، حياة الآخرة ، التى وإن كانت هى الحياة الباقية ، إلا أنها لاتمحو الحياة الدنيا ، بل الدنيا مزرعة لهـا ، وهى دار العمل والتكليف والإبتلاء ، هى دار المسئولية والأمانة التى تحملها الإنسان ، بعد أن عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ،وهى دار الخلافة والعبادة والإعمار والتسخير ، هى دار الكد والجد ، هى دار الشهوات والمال والولد والخيل المسومة والأنعام والحرث ، هى دار اللعب واللهو والزينة والتفاخر ، ومع كل ذلك فهى الفانية الزائلة ، وعمر الإنسان فيها مقدر محدود ، فلا ينبغى أن يضحى بالباقية من أجل الفانية ، بل يجعل الفانية من أجل الباقية ، بأن تكون حركته فيها لله تعالى ، إتباعا لشرعه واهتداء بشريعته ، واستجابة لمراده تعالى .

وعلى ذلك فالإسلام يرعى الإنسان فى دنياه لتصلح آخرته ، ويرعى له آخرته ليكون لدنياه معنى وغاية ، وإلا كانت حياته مأساة ، ونهايته أسيفة ، حياة لاتفضل حياة الحيوان ، ونهاية هى أهون من نهايته .

وحين تتأكد النظرة الشمولية التى يكفلها الإسلام كإسلام ، أى كدين كامل متكامل للإنسانية جميعاً ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من داخل قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(١)، قوله : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)(٢)، وداخل علاقة الدنيا بالآخرة

(١) الأنبياء ، آية ١٠٧ .

(٢) سبأ ، صدر الآية ٢٨ .

فى منظور الإسلام ، التى يعبر عنها قوله تعالى آمراً نبيه محمد ﷺ نبى الإسلام : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين)(١)، وقوله تعالى : (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)(٢) .

حين تتأكد هذه النظرة الشمولية ، فلا مناص من أن تحمل التربية فى الإسلام طابعه وطبيعته ، فتسهم فى تركيز هذه النظرة ، ومن هنا تكون إسلامية ، إسلامية الطابع ، مع إسلامية المبادىء والمصادر والأهداف والغايات .

واستمساكا بذلك ، فإن مايدعى بالتربية الدينية ، لو سلمنا بها ، فلن تكون أكثر من فرع من فروع التربية الإسلامية ، لاتغنى عن غيرها ، وقد لايغنى غيرها عنها ، لكن الكل أفرع فى دوحة عظيمة هى الإسلام ، تتوحد جميعاً فى أصلها الثابت ، وتتعدد فى أشكالها ووجهاتها ، ثم تعود للتوحد فى العطاء ، عطاء الإيمان الذى يعطى الإنسان ويعطيه الإنسان .

التربية عندنا إسلامية أولا وآخراً ، فإن تكن عند غيرنا دينية ، فهذا شأنهم ، وهذا ماعندهم ، وهذه كل بضاعتهم .

بل إننا نحمل مناهج التربية غير الإسلامية مسئولية الضلال الإنسانى قديما وحديثاً ، ومسئولية الضياع الإنسانى كذلك ، لأنها ببساطة عرجاء عوراء لاتسير إلا على قدم واحدة ، ولاترى إلا بعين واحدة ، عين المادة أو عين الروح ، عين الدنيا أو الآخرة ، عين الجماعة أو عين الفرد ... الخ

(١) الأنعام ، آية ١٦٢ .

(٢) العنكبوت ، من الآية ٦٤ .

فلا تؤدى إلا إنسان مشطور ، وحياة شوهاء ، فيكون التصادم والشقاق، والضلال والصراع ، إنشقاق فى ذات الإنسان أولا ، يتبعه صدوع وإنشقاق وضلال وصراع فى كل الجهات والإتجاهات ، صراع إنسان المادة مع إنسان الروح ، وإنسان الدنيا مع إنسان الآخرة ، إنسان الفردية مع إنسانية الجماعية :

إن مناهج التربية الفاسدة الشوهاء مسئولة قطعاً عن مظاهر الصراع الطاحن فى دنيانا ، وجماعاتنا ومجتمعاتنا المعاصرة . تلك حقيقة لاتخضع للجدال .

ورب قائل يقول: مابال المسلمين الآن أشد المعاصرين إنشقاقاو تصدعا وصراعا وتصارعا ، بالإضافة إلى الضعف والتخلف وسوء العيش وسواد الحياة ؟ نعم : هم كذلك وأكثر ، للآتى :

١ — لأنهم ضحية الصراع الإنسانى المعاصر ، بحكم أنهم جزء منه ، يهتزون باهتزازه ، وتصيبهم توابعه .

٢ — ثم إنهم خضعوا لألوان من الإستعمار العسكرى والغزو الثقافى ، حتى نابهم الضعف وحاق بهم التخلف ، وبفعل كل ذلك صُدِّرت إليهم مناهج تربوية علمانية شوهاء ، وجدت لها فى بلاد الإسلام سوقا رائجة فأحدثت بهم ، ماأحدثت بقومها هناك ، وكانت الطامة .

٣ — مع كل ذلك غابت التربية الإسلامية بكل مناهجها ومباهجها غيابا شبه كلى ، إن فى قلة البيئات التعلمية التى تنفذها ، وإن فى ضياع ملامحها الأساسية فى زحمة المناهج التربية الغريبة والغربية ، بل إنها ضاعت وضعفت فى بيئات التعليم الإسلامى فى شرق وغرب العالم الإسلامى

٤ — ولا نغفل هنا عن الآثار التدميرية لأدوات الإعلام والتثقيف المعاصرة ، وكلها تبث السموم وتروج للقيم الهدامة وتنشر الفساد فى الأرض .

ذلكم بعض ما يمكن أن يفسر لنا حالة المسلمين المتردية ، وبين أيديهم كنز التربية الإسلامية الذى لا ينفد .

ثانيا : نبذ الإزدواجية:

مع أن التربية فى الإسلام ، لاتهمل جانباً من الإنسان لحساب جانب ولا تسقط الدنيا لحساب الآخرة ، كما أسلفنا ، فهى مع ذلك لاتقر الإزدواجية أو الثنائية فى العملية التربوية ، بحيث تصبح هنالك تربية دينية ، وأخرى دنيوية ، منفصلة إحداهما عن الأخرى ، من حيث المبادىء والمناهج والوسائل والأهداف ، وتصبح هنالك مؤسسات تربوية يرعى بعضها جانباً من الإنسان ، ويرعى بعضها الآخر جانبا آخر منه ، فتكون هنالك مؤسسات تربوية دينية ، وأخرى مدنية ، كما هو الواقع الآن .

ويصير هنالك — من ثمة — نظامان مستقلان للتربية والتعليم .

إن الإزدواجية على هذا النحو ، أمر غريب على الإسلام ، فهى بالضرورة أمر غريب على العملية التربوية الإسلامية ، ذلك أن الإنسان الذى هو موضوع التربية فى الإسلام ، كل مترابط متداخل ، خلقه الله تعالى من تراب ثم نفخ فيه من روحه ، فهو مادة أحيتها الروح ، وروح تجسدت بالمادة ، ومن اجتماعها وارتباطها وتفاعلهما كان الإنسان بكل مافيه من طينية وروحية .

وهذه فطرته ، ولأن الإسلام يرعى هذه الفطرة وينميها يتقرر أن المسلم

لا يكون « مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ...

الإسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة ، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه ، وما عمله الأسمى سوى التوفيق بين الوجهتين الروحية والمادية فى الحياة الإنسانية .

وإنك لترى هاتين الوجهتين فى تعاليم الإسلام تتفقان فى أنهما لا تدعان تناقضاً أساسياً بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية ، ليس هذا فحسب ، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلا أمر يؤكده الإسلام ، إذ يراه الأساس الطبيعى للحياة »[1] .

وحيث يتقرر كل ذلك ، فلا مجال لإنشقاق فى العملية التربوية فى الإسلام ، ولا قبول مطلقا بالازدواجية التربوية .

يضاف إلى ذلك ماحررناه سابقا من أن الدنيا فى وعى الإسلام ، وحياة الإنسان فيها ، ضروريان للآخرة وحياة الإنسان فيها ، لارتباط الجزاء بالعمل ، والدنيا هى دار العمل ، ولارتباط فلاح الانسان فى الآخرة أو خسرانه ، بمدى الاقتراب أو الابتعاد من منهج الله تعالى ، والوفاء أو التقصير فى إنفاذ مراد الله تعالى من خلقه ، والدنيا هى مسرح كل ذلك .

اذن الدنيا مقصودة والآخرة مقصودة ، لكن يظل الفرق قائما ،

(١) الفكر الإسلامى ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، نقلا عن : الإسلام فى القرن العشرين للعقاد ، والإسلام فى مفترق الطرق ، لمحمد أسد ، (ترجمة عمر فروخ) ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ — ١٩٩٦ م ، مرجع سابق .

فى أن الدنيا لا تقصد لذاتها ، بل من أجل الآخرة ، المقصودة هى بذاتها والدليل على ذلك : « أن الشريعة الاسلامية إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعى أهوائهم ، حتى يكونوا عبادا لله ، لقوله تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)[1] .

والدليل أيضا : أن المقاصد قد تختلط . فيها النافع بالضار ، وحينئذ يقدم الأكثر نفعا ، فإذا تعارضت مصالح الدنيا مع مصالح الآخرة قدمت مصالح الآخرة ومقاصدها ، لأنها هى الحياة ، وهى البقاء (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)[2] ، [3] .

ومن جانبنا نقول : إن الإنسان مقصود للدنيا وللآخرة معا ، ولكل منهما حق فيه ، مقصود للدنيا عملا ، وللآخرة جزاء ، ولا يكون مقصودا لهما ، إلا من حيث هو كلى لا جزئى ، مرتبط لا منشق ، فى تكوينه الجسدى مترابط ، وفى تكوينه الأدبى مترابط ، وفى تكوينيه كليهما مترابط ، وخطاب الشرع له إنما هو خطاب له من حيث هو إنسان ، بالروح والجسد على حد سواء .

ما كان — إذن — يقبل فى نطاق التربية أن تكون سبيلا إلى شطره وانشطاره ، وسببا للصراع الذاتى فيه ، إن كانت تربية واعية ، بل إن كانت تربية إسلامية .

ونقول : ليكن هنالك ألف مجال للتربية الاسلامية ، لكن ليس

(١) المؤمنون ، من الآية ٧١.
(٢) العنكبوت ، من الآية ٦٤.
(٣) الفكر الاسلامى ، ص ٧٢ ، مرجع سابق .

هنالك ألف هدف لها، بل ولا أكثر من هدف. وليكن لها ألف وسيلة، لكن ليس لها إلا مصدر واحد هو الإسلام العظيم.

لتكن هنالك تربية بدنية، وروحية، وعلمية، وأدبية، وفكرية، وإجتماعية، واقتصادية، وو... الخ، ولكنها كلها تتوحد من حيث موضوعها وهو الإنسان، ومن حيث مصدرها وهو الإسلام، ومن حيث هدفها، وهو عبادة الله تعالى، ومن حيث إنتاج شخصية إنسانية تتوازن فيها كل هذه الجوانب، وإنتاج حياة تستثمر فيها كل هذه الجوانب.

قد يحتاج إلى التأكيد على بعض الجوانب، لضرورة التخصص العلمي أو الحرفي، أو لضرورة رعاية الموهبة والقدرات الخاصة، ولكن يظل التكامل مقصوداً، والعمل من أجل إنجاح الإنسان في مهمته أساساً ومرغوباً.

ومن هنا، فإن مايرى ويشاهد، بل ويمارس من مظاهر الأزدواجية في أنظمة التربية والتعليم في العالم الإسلامي، يفسر خارج دائرة التربية الإسلامية، ولا يحسب عليها، بل - كما أشرنا سابقاً - يفسر من داخل حركة الاستعمار العسكري، والغزو الثقافي، وتخلف المسلمين وضعفهم، ثم تبعيتهم للمستعمر الغاوي، فتسللت إليهم بوعي أو بدون وعي، مناهج تربية وتعليم علمانية لا دينية ولا إسلامية، تؤمن أشد الإيمان بالأزدواجية التعليمية والتربوية، حيث أعياها القضاء على الدين تماماً في الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي:

إننا «إذا نظرنا من حولنا - في هذه البلاد الإسلامية - لوجدنا

عجباً، إن مناهج التعليم قد أنشطرت شطرين متميزين، كل منهما يسير في واد، ولا تربطه بالآخر رابطة.

فهناك التعليم المدني والتعليم الديني، تماماً كما هي الحال عند غير المسلمين، وللتعليم المدني مدارسه ومعاهده وكلياته وجامعاته، وللتعليم الديني مثل ذلك، من المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، وكل ذلك بعيد عن مبادىء ديننا، منقول عن غيرنا، دون وعي وبدون تفكير ولا تدبر»[1].

في الوقت الذي تحتم فيه مبادىء التربية الإسلامية ومقاصدها، أن لا تكون هناك أزدواجية في التعليم «لأن التعليم المدني، ماهو إلا رافد من روافد التعليم الديني، وكل ماهو مرتبط بأمور الدنيا، وما هو مرتبط بأمور الآخرة هو تعليم (إسلامي) نصا وروحا.

فما ينبغي أن تقرر دراسات دينية لايعرف دارسوها شيئا من أمور الحياة الحاضرة، ولا أن تقرر دراسات دنيوية لايحيط أصحابها بكل مايجب عليهم علمه من أمور الآخرة»[2].

وللحقيقة: فإن الإسلام لايعرف القطيعة بين الدين والعلم، وليس مسئولا عن شيء مما وقع من ذلك في العالم الإسلامي، بل صدرت إلينا هذه القطيعة تصديراً، متعمداً من بيئتها الغربية المسيحية العلمانية، حيث أستقرت على أن الدين أو المسيحية، يعمل في نطاق الجانب الروحي

---

(١) نحو مناهج إسلامية، محمد حامد الأفندي، ص ١١ مرجع سابق.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

الاعتقادى التعبدى ، وشيئاً من الحياة الخاصة للإنسان (الأحوال الشخصية) وعلى أن العلم يسوس الدنيا فكراً وتنظيما وإنتاجاً ، ويسير كل منهما فى اتجاهه ، فلا يتدخل فى شئون الآخر أو يدخل دائرة اختصاصه ، فتأكدت الازدواجية واستحكمت وتأصلت هنالك ، ثم طاحت وطاشت فى كل وجهة واتجاه ، وأصابنا نحن المسلمين من ويلاتها الكثير ، فوجدنا ـ للأسف ـ أن « برامج التعليم فى البلاد الإسلامية ـ فى نهضتها المعاصرة ـ قد تأثرت إلى أبعد مدى بالقطيعة المزعومة بين الدين والعلم ، هذه العدوى التى تعتبر من أمراض المدنية الأوروبية الحديثة . . . (وقد) آن لنا أن ننظر إلى هذا الموضوع بمنظار الإسلام ، وأن نزنه بميزان علمى موضوعى ، لاتختل فيه حقائق الأمور ، بحيث تجعل من الدين والعلم وجهين لعملة واحدة ، ومن حقائق الدين وحقائق العلم كلا متكاملا ، لاتصح حياة البشر إلا حين تهتدى بهديها . . . »(١) .

ولما جاءتنا المناهج التربوية العلمانية ، وحدث الإزدواج ، تاهت وضاعت معالم التربية الإسلامية ، وحوصرت ، حتى غدت فرعا من أفرع التربية ، منفصلا عن غيره ، معزولا ، بل ومضطهداً ، « لايسمح له بالتداخل فى النشاطات التربوية الأخرى ، دون أن يتهم بالتطفل والمزايدة »(٢) .

---

(١) التعليم الإسلامى فى الماضى وميراثه الحاضر ، د/ إبراهيم أحمد العدوى ، ص ٣٦ الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، المركز العالمى للتعليم الإسلام ، جامعة أم القرى مكة المكرمة .

(٢) الفكر الإسلامى ، ص ٢٥٢ ، مرجع سابق .

وكان ذلك من مضاعفات الوضع العلمانى السائد الآن ، والأخطر فى الموضوع ، أنه « إذا لم تكن التربية الإسلامية هى الإطار المرجعى لكل أنواع التربية الأخرى ، فإن الموقف يضطرنا إلى إتخاذ فلسفات أخرى إطارا مرجعيا بديلا ، وهذا نقض للإسلام ، لايمكن علاجه بمجرد السماح بوجود نوع من (التربية الإسلامية) التابعة أو المعزولة .

إن التربية الإسلامية لاتكون كذلك ، إلا بالهيمنة والتداخل فى أنواع التربية الأخرى »(١) .

إن ظاهرة الإزدواجية هى على حساب التربية الإسلامية والتعليم الإسلامى ، وبالمقابل ، هى لحساب التربية العلمانية والتعليم العلمانى .

وفى ظلها تنامت مؤسسات التعليم والتربية المدنية العلمانية ، فى مصر والعالم الإسلامى ، حتى صار التعليم الحديث كله بمناهجه وسياساته ، وأهدافه ومعلميه صناعة علمانية ، مرتبطة بمبادىء وفقه التربية الوافدة ، فراجت سوق المادية ، وعاثت نظريات الفكر الغربى فى الوراثة والبيئة والنفس فى ديارنا فساداً ، بما تحمله من حيوانية الإنسان وماديته ، وما تفرضه من جبرية عصرية ، أطاحت بالشخصية الإنسانية وعناصر الحسم فيها ، تحت وطأة البيئة والوراثة والغرائز العمياء ، فأبعدت الإنسان تماما عن مسئوليته أمام الله تعالى ، والإقبال عليه بالإيمان والإسلام والإحسان والعبادة .

وتجمد العمل التربوى فى العالم الإسلامى ، عند هذا الحد الذى لايكاد يرتقى عن مستوى لملمة العناصر والإستعدادات التى ترجع إلى الميول

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .

والغرائز والطاقات البيولوجية ، والصفات المكتسبة من الخبرة ، من حيث قدرة هذه العناصر على التكيف مع البيئة المادية والإجتماعية .

وهذا الموقف العلماني من الشخصية الإنسانية يشوهها تشويها ، ويبترها بتراً .

ولا يستقيم الأمر من وجهة نظر الإسلام إلا بإعلاء مجموعة العوامل الإيمانية الداخلة فى بناء الشخصية ، والعاملة على تكاملها والترقى بها ، والسيطرة عليها .

ومن الواضح أننا نعنى بالعناصر الإيمانية هنا ، تلك التى تربط الإنسان بالله ، وبمخلوقاته ، وبالدنيا والآخرة على حد سواء[١] .

إن إنشطار العملية التربوية هذا الإنشطار الثنائى أضر بالحياة الاجتماعية ضررا بليغاً ، حيث أحدث إنشطاراً فى بنية المجتمع نفسه ، فبرزت فئتان متعاندتان ، ترى كل منهما فى ذاتها أنها الأكمل والأنفع ، فئة المدنيين ، وفئة الدينيين ، وتحوصلت كل منهما داخل نفسها ، فسرى الانشقاق والإنشطار إلى الشعور والوعى والوجدان الاجتماعى ، وتخصصت كل منهما فى ناحية معينة ، وأنشطة خاصة ، وأدوار إجتماعية محددة . لاتدع للتعاون والتشارك أى مساحة .

استقرت الثنائية الإجتماعية ، لما استقرت الثنائية التربوية ، وعانينا من قبل ، ولازلنا نعانى ، وسنظل نعانى من ويلاتها ، إلى ماشاء الله .

بل تسلل هذا الإنشقاق الإجتماعى إلى بيئة الأسرة ذاتها ، حيث باتت .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

أسر وطبقات إجتماعية تتحمس للتربية والتعليم المدنى بشكل بريقهما وضماناتهما المستقبلية الواسعة والمأمونة والمضمونة ، ويتحمس للتربية والتعليم الدينى ، بكل مايرتبط بهما من عاطفة دينية أسر وطبقات إجتماعية ، بل الكارثة الكبرى حين تبتلى الأسرة الواحدة ببعض أبنائها وقد وجدوا فرصتهم فى التعليم المدنى ، وبالبعض الآخر الذى لم يجد فرصته إلا فى التعليم الدينى .

إن الكارثة تحيق بنا ، ولا مخرج إلا بوعى صادق بأبعاد العملية التربوية فى وضعها الإسلامى الصحيح ، وحتى نجد فرصة للخروج من هذه الدائرة المغلقة .

بل إن الكارثة تحيق بالمؤسسات التربوية والتعليمية ، التى تلقب بالدينية وبالإسلامية ، حيث لم تنجح ، منذ الغزو العلمانى وحتى الآن ، فى أن تحصن نفسها ، وتحافظ على البقية التى بقيت لها من أسباب التعليم الإسلامى ، ولا أن تربّى تربية إسلامية ، لما تخلت فى الماضى القريب عن دورها فى رعاية علوم الدنيا ، ورضيت بما عرف بعلوم اللغة والدين ولما وقعت الآن فى براثن الثنائية ، حين قبلت هذه العلوم الدنيوية فى صورتها العلمانية ، ووضعتها مع العلوم الأخرى ، ثم لم تفعل شيئاً ، بل ولا يظن أن تفعل شيئاً .

لقد خاب من أفترى ، فجعل الدين للآخرة ، وجعل العلم للدنيا ، فأضر بالدين الصحيح . وظلم العلم السليم ، فإن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح ، بل يصير الدين هاديا ، والعلم نصيراً ، بل يصير العلم من نسيج

الدين ، ومع الدين العالم والعلم المتدين ، يقيم الإنسان دنياه وآخرته عند مراد الله تعالى منه ، ومنهما معا .

لا إزدواجية إستقلالية تصارعية فى الإسلام ، فلا إزدواجية تصارعية فى المنظومة التربوية الإسلامية ، وإن كانت الإزدواجية عند غيرنا ضرورة ، فهى عندنا ضرر ، وإن كانت عند غيرنا حلا لمشكلة ، فهى عندنا صميم المشكلة ، وإن كانت عند غيرنا علاجا لصراع حقيقى ، فهى عندنا سبب لصراع حقيقى ، وإن كانت عند غيرنا عنصرا إجتماعيا ، فهى عندنا كارثة إجتماعية .

ولا حول ولا قوة إلا بالله

الإنسانية :

نبهنا سابقاً على أن الإنسان كائن تربوى ، وأنه محور التربية وموضوعها ومنطقة عملها وأملها ، وأنه مؤهل فطريا لممارسة التربية أخذاً وإعطاء ، فاعلا ومنفعلا ، مؤثراً ومتأثراً .

وغايتنا هنا أن نؤكد على ذلك بشىء من التفصيل والبسط ، والتحليل والتركيب ، فنقول :

أولا : التربية فى الإسلام إنسانية ، وفى يقيننا أن مسوغ هذا الوصف أمور :

١ - أن الإنسان - كما قلنا - هو محورها ومركز الدائرة فيها ، فليست تربية دون الإنسان ، وليس إنسان دون التربية ، فالتربية إنسانية . والإنسان تربوى .

ثانياً : أن التربية فى الاسلام لاترغب إلا فى أن يكون الإنسان إنسانا

وفقط ، وإلا فى أن يعيش إنسانيته ، ويمارسها وينميها ويرقيها ، دون أن يجاوز سقفها فيكون ملكا ، أو يخرق أرضها فيكون حيواناً ، فليس فوق الإنسانية إلا الملائكية ، وليس دونها إلا الحيوانية .

إن هذا المعنى هام وأساسى فيما نحن بصدده الآن : إن الانسان فى الإسلام لم يكلف بما هو ضد طبيعته وفوق طاقته ، ومن هنا نطالع قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)(١) ، وقوله تعالى : (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ، وقوله تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(٣) .

وإنسانية الإنسان إذن تبدأ من حيث نهاية الحيوانية الصرفة ، وتنتهى من حيث بداية الملائكية الصرفة ، وفى هذه المساحة يمارس إنسانيته ، ويترقى بها وفيها ، حتى يصل إلى مرتبة أن يكون ربانيا يقول للشىء كن فيكون .

إن آية الخالق العظيم فى خلق الانسان وتكوينه ، أنه جعله وسطا بين الحيوان والملك ، فركبه من المادية والروحانية ، المادية بكثافتها وغرائزها والروحانية بسموها وشفافيتها ، فى تداخل وترابط وتفاعل ، لا تنفصل فيه المادة عن الروح ، ولا تستقل فيه الروح عن المادة ، وصدق الله العظيم ، إذ يقول : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من

---

(١) البقرة ، من الآية ٢٨٦ .

(٢) الإسراء ، آية ٩٥ .

(٣) الأعراف ، آية ١٧٩ .

طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون)(١)، والأنبياء (صلوات الله عليهم) وهم الصفوة والمصطفون ، وحملة الرسالات السماوية ، يظلون بشراً وأناساً ، وإن كانوا فى قمة البشرية ، وأعلى الإنسانية ، ونجد من ثمة القرآن الكريم يؤكد ذلك تماماً ، إن فى حق السابقين على سيدنا محمد ﷺ وإن فى حقه هو ﷺ ، يقول تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ...)(٢) أمراً لرسوله محمد ﷺ ، ويقول سبحانه : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى)(٣) .

وقوله : (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين)(٤)

من هنا ، فإن الضغط على جانب فى الإنسان لحساب الجانب الآخر فيه ، هو ضغط على إنسانيته ، فى أخص مايخصها وهو التوازن والترابط والإتساق ، فالضغط على ماديته أو على روحانيته تشويه لفطرته وتعطيل لوظيفته وانتقاص لإنسانيته .

والمشاهد ، أن مناهج التربية الوضعية العلمانية ، من حيث إنها تعلى الجانب المادى الدنيوى ، أدت إلى تنشئة أجيال تحكمها وتتحكم فيها قيم المادية والنفعية والإباحية ، قيم اللذة والمتعة والأنانية ، وبالمقابل ، فإن مناهج التربية الروحانية أدت إلى سيادة قيم الإغتراب والرهبانية والانسحاب من الحياة ، وكلتاهما أسهمت فى مشكلات للإنسان والحياة عاتية .

---

(١) السجدة ، الآيات ٧–٩ .

(٢) الكهف ، من الآية ١١٠ ، وفى سورة فصلت الآية ٦ ، بنصه هنا

(٣) يوسف ، من الآية ١٠٩ ، وراجع الآية : ٤٣ من سورة النحل .

(٤) الأنبياء ، آية ٨ .

لاغرو كانت التربية فى الإسلام إنسانية بالمعنى الوافى الكافى تتمحور حول الإنسان فى كماله وتكامله ، فى فطرته السوية المصونة .

ثالثاً : هى إنسانية ، لأن الإنسان هو فاعلها ومفعولها معا ، وآخذها ومعطيها ، ومضعفها ومقويها ، ومحركها ومسكنها . إنها — عندنا فى الإسلام فيما عدا المبادىء والمقاصد — جهد إنسانى ، يطال الوسائل والمناهج والأساليب والكيفيات ، فى كل مجال من مجالاتها وفى كل مستوى من مستوياتها .

إن المسئولية التربوية هى مسئولية إنسانية ، من داخلها يكون الإنسان مسئولا عن أن يربى ، بعد أن يكون غيره قد رباه ، من داخل هذه المسئولية كذلك ، بل إن هذه المسئولية ، مسئولية الفعل والإنفعال ، تلازم الإنسان مادام حيا ، فهو آخذ ومعطى ، بل يجب أن يكون آخذاً ومعطياً ، فالتربية لا نهاية لطريقها ، حتى ولو كانت ذكرى وتذكرة ، وحراسة ووقاية .

رابعاً : إن الانسان بما أهله الله تعالى به من عقل وقلب ونفس وإرادة وغرائز وملكات واستعدادات ، وجسم وأعضاء ، وأحاسيس ومشاعر ورغبات ، وآمال وطموحات ، هو الجدير حقا بأن يكون فى خضم العملية التربوية ، بما تفرضه من وعى واختيار ومسئولية ، وما تراكمه من تجارب وخبرات ، ودروس واستفادات .

والإنسان يكاد أن يكون من بين خلق الله جميعا ، هو الذى يستطيع أن يصنع تاريخا ويكتب سجلا ، ويكون وعيا بالخبرات والتجارب والممارسات والعلاقات والقيم والسلوكيات ، سجلا من المعارف والعلوم ، ومن الأحداث والوقائع ، والوعى العلمى والعملى

إنه وحده المؤهل لأن تكون لديه ذاكرة تاريخية، أو سجل تاريخي، ومن ثم فهو وحده المؤهل للتربية، ويمكنه أن يصنع [ذاكرة تربوية] أو [سجلا تربويا] فردياً وجماعياً واجتماعياً.

هذه حقيقة تسوغ بشكل قاطع القول بأن التربية خصيصة إنسانية، فهي من ثمة إنسانية.

خامساً: إن التربية إنسانية، لأنه يمتلك اللغة والبيان، والشفتين واللسان المعبر، ويدل لذلك قوله تعالى، في الحديث عن الإنسان وامتيازه بذلك: (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان)(١)، وقوله تعالى: (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين)(٢).

واللسان والشفتان هنا أداة اللغة والنطق، وإلا لما كان للإنسان في ذلك ميزة أو مزية.

ولاشك أن اللسان المبين، واللغة اللسانية هي الأساس في نقل الألفاظ، والتعبير عن الأفكار، والتنويه عن الرغبات. وذلك أدخل في باب التربية منه في شيء آخر.

سادساً: أن الإنسان وضع بين كفتي ميزان، من الفعل والترك، والشر والخير، والهدى والضلال، والطاعة والمعصية، والفلاح والخيبة، والرغبة والرهبة، والتزكية والتسفل، والغريزة والتسامي، فهو مبتلى مختبر ممتحن في كل أحواله وحالاته، إلا ما يكون خارج الإرادة والنية، وليس ذلك لغيره من كون الله تعالى ومخلوقاته، وهذه

---

(١) الرحمن، الآيات من ١-٤.

(٢) البلد، آية ٨، ٩.

آية في الإنسان، فكان من ثمة مستودع الرسالات، والمخاطب بالشرائع السماوية، بياناً له وهداية، ورحمة وإفلاحاً وتبشيراً وإنذاراً، وأخذاً به إلى ما يسعده دنيا وأخرى، وحتى لا تكون له على الله تعالى حجة.

هذا الوضع — فوق أنه دقيق وخطير — هو مساحة جيدة للخيار والإختيار، والقرار والتقرير، ولا شك أن التربية هنا تكون حتمية ليكون الإنسان عند موقع الاختيار السليم، والقرار الواعي.

ولأن الوضع دقيق وخطير، اقتضت رحمة الله تعالى أن لا يوضع الإنسان موضع الإختيار والإختبار والتكليف، إلا بعد أن يقطع مراحل من النمو الجسدي والعقلي والعاطفي، فيصل إلى مرحلة البلوغ، ليس البلوغ الجسدي فقط، بل البلوغ الرشدي، بلوغ العقل، بالقدرة على الإختيار المسئول، والبلوغ العاطفي الذي يتطلب وعيا وتوجيها وإرشادا، بعد أن يكون قد وضع صاحبه على بداية الوعي الارادي.

إن التربية هنا تبقى إنسانية، لأنها إعداد للإنسان المخاطب بالشرائع والرسالات، وإعداد له ليرشُد اختياره، ويسلم قراره، وحراسة له من أعدائه الذين هم بين جنبيه: النفس، والمتربصين به من الخارج: الشيطان.

لكل ذلك وربما غيره، كانت التربية في الإسلام [إنسانية]، ولأنها كذلك، فقد أعدت وسائل النمو الصالح لكل الملكات البشرية الصالحة للإنسان، فاعترفت بحاجاته الطبيعية الضرورية، وأباح القرآن للإنسان إشباع هذه الحاجات، بل دعا إلى ذلك، ونظم طريق الإنتفاع به، ونحن نلمس ذلك في مثل قوله تعالى: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات،

ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين) (١) ، وقوله جل شأنه : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢) ، (٣) .

ولأن الإنسان هو خامة التربية فى الإسلام ، جاءت تعاليم الإسلام فى كل مباديها ومقاصدها وجوانبها وميادينها ، تخاطبه وترعاه فى كل أطواره وأحواله وحالاته ، تبين له الخير والنافع وتزينه له وتحببه فيه ، وتحرضه عليه ، وتبين له الشر والضار ، وتقبحه له وتزهده فيه ، وتكفه عنه .

وجعلت من حياته كلها تجربة تربوية ، من مبتداها إلى منتهاها ، تجربة تربوية حية ، وجندت كل أدوات وآليات التوجيه والتأثير والدعوة ، لإثرائها وإغنائها ، حتى تطيب للإنسان حياته أمنا ورضا من ربه ونفسه ، وحياة من حوله أمنا وسلاما ، فتطيب آخرته سعادة وفوزاً وفلاحا .

ولأن الانسان هو منطقة عمل التربية ، فقد كشفت الشريعة الإسلامية الغراء عن عناصر الضعف والقوة فيه ، وحالات لينه وجحوده ، وأسباب استجابته ونكوصه ، وعن رغباته وغرائزه ، وعن تكوينه النفسى ، والوجدانى ، وعن تأثيره وتأثره ، فقدمت خريطة متشابكة كاملة للإنسان بكل خطوطه وخيوطه ، ولا غرو ،

---

(١) المائدة ، آية ٩٣ .

(٢) الأعراف : من الآية ٣٢.

(٣) التعليم فى الإسلام ماضيه وحاضره ، ص ٣٥ ، مرجع سابق

فإن الشريعة هى شريعة الله تعالى ، الذى خلق الإنسان ، ويعلم ماتوسوس به نفسه ، وهو القائل سبحانه : (ألا يعلم من خلق) (١) . والقائل : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه . ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (٢) . واستفاض القرآن الكريم والسنة المطهرة فى الحديث عن الإنسان ، وأنه (خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين) (٣) ، (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (٤) . (إن الإنسان لربه لكنود) (٥) ، (وإنه لحب الخير الشديد) (٦) ، وأنه إن (أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) (٧) ، وأنه (إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) (٨) ، وأنه يحمل نفساً (أمارة - لوامة - مطمئنة) ، وأنه يعرض له الحسد والكبر والعجب والرياء والسمعة ، وأنه يقع تحت طائلة الشيطان والهوى والغرور والظنون .

وأن الإنسان يمكنه أن يغالب كل هذا ويغلبه ويتغلب عليه وإلا لكان شيطاناً حيواناً جبرياً مسلوب الإرادة ، وأنه بالإيمان والعمل

---

(١) الملك ، من آية ١٤ .

(٢) ق ، آية ١٦ .

(٣) المعارج ، آية ١٩ - ٢٢ .

(٤) العلق ، آية ٦ - ٧ .

(٥) العاديات ، آية ٦ .

(٦) العاديات ، آية ٨ .

(٧) الحج ، من الآية ١١ .

(٨) البقرة ، من الآية ١٧٠ .

الصالح ، وتزكية النفس ، وابتغاء الدارة الآخرة ، وقصد الحلال ، والإتعاظ بأحداث الماضى ، وتاريخ السابقين ، ووقائع الحياة من حوله يستطيع تماماً أن يكون الإنسانَ الحق ، القائم على حدود الله تعالى .

وتعمل التربية هنا ما وسعها العمل ، بياناً وتنشئة وتوجية وتطبيقا ، للأخذ بيد الإنسان إلى مايحفظ عليه نفسه ودينه ودنياه .

• • •

الربانيـــة :

مع أن التربية فى الإسلام إنسانية ، فهى مع ذلك (ربانية) ، على معنى أنها تستمد أصولها ومبادئها وغاياتها ، بل ووفرة من وسائلها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، اللذين هما وحى الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ ، وأن كل مايدخل فى الأصول والأهداف التربوية الإسلامية عائد إلى أصل قرآنى ، أو توجيه نبوى ، أو إلى كليهما معا ، وأن مايدخل فى الوسائل التربوية ، وطرق وأساليب التربية ، نبه القرآن الكريم والسنة النبوية ، على وفرة منه ، تعد الأساس فى هذا الباب .

هى ربانية المصدر والهدف والوسائل الأساس ، ومع ذلك ، هى ربانية ، لأنها ترعى مراد الرب جل وعلا ، من خلق الإنسان ، الذى هو سبحانه رب كل شىء ومليكه ؛ رب الناس ، ورب السموات والأرض ، ورب العالمين ، هى إذن ربانية لأنها رعاية الرب الخالق ، للإنسان المربوب المخلوق .

وحول هذا التصور يمكننا التأكيد على الآتى :

أولا : أن مبادىء التربية الإسلامية ووجهتها ، لاتُطلب خارج نطاق القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأنها ليست محل اجتهاد إلا بمقدار ما تستنبط من نصوصهما .

ثانياً : أنها مصونة محفوظة بحفظ مصدريها : القرآن والسنة ، وفاقا للتأكيد الإلهى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(١) ، وقوله تعالى : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٢)، وقوله تعالى عن سنة رسول الله ﷺ، وأنها وحى وبيان : (بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٣) .

ثالثاً : أن معالمها الأساس موثقة موصلة ، لايقبل بين يديها دعوى التبعية والتقليد ، مما يجعل للتربية فى الإسلام خصوصية فريدة ، وامتيازاً فائقاً مطلقا .

رابعا : أنها أدخل فى باب العموم والشمول والكمال والتكامل ، استجابة لعموم وشمول وكمال مصدرها وحى الله تعالى : القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) الحجر، آية ٩ .

(٢) فصلت، آية ٤١ ، ٤٢ .

(٣) النحل، آية ٤٤ .

خامسا : أنها تحتفظ بمستوى من الثبات والإستمرارية ، من داخل ثبات أصولها وقواعدها وأهدافها ، المحددة قرآنا وسنة ، فهى إذن قادرة على أن تصنع نسقا فريداً من الوحدة والتوحــد بين أجيال الأمة الإسلامية ، كما تصوغ معالم مميزة للشخصية الإسلامية ، فى عالم يزحف نحو الإذابة والذوبان .

سادساً : أنها تحظى بمرجعية تفرض إحترامها والإلتزام بها ، كما تفرض عليها هى ضرورة أن تراجع حركتها وتصحح مسارها ، وتقوم أداءها فى ضوئها .

سابعاً : أنها تظل خادمة لمراد الله تعالى من خلق الإنسان ، وقد أراد سبحانه وتعالى أن يمارس الإنسان فى الدنيا حق الخالق على المخلوق ، وهو العبودية والعبادة ، إذ كل مخلوق هو عبد لخالقه قطعا ، وجاء فى هذا قول الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(١) . وحيث أراده سبحانه عابدا ، فقد ركب فيه فطريا مقومات العبادة ، وهيأه نفسيا لها ، من ثم ، فإن « من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط فيه عنه التعبد ، فهو كافر بالله ورسوله ، بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية ، كانت عبوديته أعظم . . .

إن العبودية طبيعة أولى فى النفس البشرية ، فإذا لم يختر الإنسان معبوده ، الذى هو الله الخالق ، بوعى وصدق ، وقع فى العبودية لغير الله »(٢) .

---

(١) الذاريات ، آية ٥٦ .

(٢) الفكر الإسلامى ، ص ١٨١ مرجع سابق .

ومن داخل عابدية الطبيعة الإنسانية ، ومعبودية الذات الإلهيــة ، يمارس الإنسان كل ما تعلق به مراد الله تعالى منه . من الخلافة فى الأرض ، وإعمارها ، والتقوى ، وحمل الأمانة ، كما أشرنا سابقا ، وسنفصل لاحقا إن شاء الله .

ثامناً : أن التربية الإسلامية من حيث ربانيتها ، تستجيب لفطرة الإنسان ، وتكوينه الطبيعى ، وحاجاته المشروعة ، بل وتعمل على حفظها ، ونموها وترقيها .

تاسعاً : أنها تستجيب لكل ماشرعه الله تعالى فى دينه الحنيف (الإسلام) عقيدة وشريعة وأخلاقا ، استمداداً وأداء وثمرة ، وتتمركز مباديها ومقاصدها حول العقيدة الإسلامية ، ومقتضياتها التشريعية والأخلاقية .

عاشراً : إن إستواء الإنسان ، واستقامة الحياة ، لابد لهما ، من العلم والعمل والإيمان ، وهذه الثلاثة هى ثلاثية النجاح ، وعناصر التقدم فى الحياة ، إذ العلم النافع لابد يؤدى إلى العمل ، والعمل المفيد لابد يتأسس على العلم ، وهما معا لانفع فيهما إلا بالإيمان الذى يمحضهما للنفع والخير ، ودعوة القرآن الكريم إلى العلم والعمل والإيمان أرحب وأعمق من أن نشير إليها هنا بنص أو آية : « إذا كان الإسلام قد أسدى للإنسانية خدمة عظمى فى توجهاته إلى الربط بين النظر والتطبيق ، أو العلم والعمل . . . فإن الإنسانية مازالت تتطلع إليه فى لهفة ، لتأخذ من يده التوجيه ، الذى تشتد حاجتها إليه اليوم ، وهو الربط بين العلم العملى وبين الإيمان ، الذى يجعل لهذا العلم هدفا أسمى وغاية عليا من وجود الإنسان والعلم والحضارة . وهذا هو ماتحتاج إليه الإنسانية اليوم لتماسك أو تحد من

الكارثة التى تندفع إليها الحضارة المعاصرة ، بسبب تقدم العلم التجريبى الخالى من الإيمان بالله سبحانه و تعالى »(١) .

ولا شك أن التربية فى الإسلام . من حيث هى إسلامية ربانية ، لابد أن تعى ذلك تماماً ، وأن تعمل له ، وأن تقدم مستوى رائعاً من الإلتحام بين العلم والعمل والإيمان ، فى الوقت الذى تقصر فيه أنظمة التربية الأخرى عن ذلك تماما .

لقد كان ﷺ يستعيذ من (علم لا ينفع) ، وكان السلف من المسلمين « يقررون أن (العلم يهتف بالعمل ، فإن أجاب حلّ وإلا إرتحل)(٢) .

حادى عشر : أنها ـ وهى ربانية ـ تنمى فى الإنسان صدق النية ، وسلامة القلب ، وخلوص التوجه فى طلب العلم والتعلم إلى مرضاة الله تعالى ، والنفع الجليل للنفس والغير . إنها تربى نوايا الإنسان وطواياه ، حتى يقصد الله تعالى . ويطلب مرضاته سبحانه فى حياته كلها ، وهنا نعثر على ما يمكن أن يسمى : (آداب التعلم) وهى آداب تظلل كل ما يطلب الإنسان من علم وعمل .

إن النية هى الأساس فى حركة الإنسان . وينبغى أن تُربّى فيه النية . حتى يُربّى التربية الحقة . وحتى يُربى هو التربية الحقة كذلك .

وقد ذكر العلماء عديداً من آداب التعلم ، مستقاة من كتاب الله تعالى

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ..

وسنة رسوله ﷺ وكلها دائرة حول النية التى توجه الإنسان ، فيما يشبه أن يكون تربية للنية ذاتها : « فذلك أن ينوى خمسة أشياء .

أولها : أن ينوى بتعلمه الخروج من الجهل . لقوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(١) .

ثانيها : أن ينوى منفعة الخلق . لقوله ﷺ : (خير الناس من ينفع الناس) .

ثالثها : أن ينوى به إحياء العلم ، لأن الناس لو تركوا العلم لذهب العلم ، لما روى أنه ﷺ قال : (تعلموا العلم قبل أن يرفع) ورفعه ذهابه .

رابعها : أن ينوى أن يعمل به لا بخلافه ، لأن العلم آلة للعمل . وطلب الآلة لا للعمل لغو .

خامسها : وينبغى للمتعلم أن يطلب به وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولا ينوى به طلب الدنيا ، لأنه إذا طلب وجه الله تعالى والآخرة ينال الأمرين معا ، أى الدنيا والآخرة معاً ، كما قال تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب)(٢) ، (٣) .

هذه الآداب السامية لا شك أنها تدريب للنية وتأديب وتهذيب لها ، والنية هى الأساس فى حركة الإنسان ، وهى من عمل القلب ، فالأمر

(١) الزمر ، من الآية ٩.

(٢) الشورى ، آية ٢٠.

(٣) الفكر الإسلامى ص ١٨١ ، سابق.

مردة إلى تهذيب القلب ، وإذا تهذب القلب ، صح العمل وصلح ، ونذكر هنا قوله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[١] . وهذه الآداب وإن تكن فى مجال العلم والتعلم ، لكنها تظل كل ما يمكن أن يتعلمه الإنسان ، فيما يشبه أن تكون أساسا لمنهج تربوى جيد ، ثم إن العلم والتعلم هما أساس أى عمل تربوى .

ثانى عشر : أن التربية الإسلامية من حيث هى ربانية ، هى تدريب للإنسان على كل مناشط الأمور ومكارهها وسرائها وضرائها ، فيستقبل الإنسان تقلبات الحياة بوعى إيمانى رائع . فيكون الشاكر فى حال النعمة . الصابر فى حال المصيبة . المتوكل على الله تعالى حق التوكل . فلا يقع فى مهاوى الضعف والإنهيار . ولا يقع فى مآزق الغرور والإغترار .

وهذا هو هدية الإسلام فى عقيدته السوية . وعناصر هذه العقيدة من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والإبتلاء والتوكل والجزاء والقضاء والقدر .

إن التربية الربانية هنا تصنع الإنسان القوى بقوة الإيمان بالله تعالى ، قوة الأمل ، الدافعة للعمل ، الدافعة لإقامة الحياة وبناء الحضارة .

إن التربية الإسلامية - وإذ هى ربانية المصدر والمقصد - تعنى دوما بانتصار الجانب الإنسانى . ووقوف الإنسان بمبادئه وقيمه وأخلاقه فى مواجهة التيارات العاصفة للحياة والإنسان المنتصر فى نظر التربية الإسلامية هو الإنسان الذى لا يستعبد إلا ربه ، قيادته من ضميره . وسعادته فى إيمانه »[٢] .

(١) الحج ، آية ٤٦ .

(٢) التعليم فى الإسلام ماضيه وحاضره ، ص ٣٤ ، مرجع سابق .

ثالث عشر : أن التربية فى الإسلام ، وهى تقف على قاعدة ربانية ثابتة ، وتخدم غاية ربانية ثابتة كذلك ، لا يمنعها مانع فى أن تتسع لاجتهادات المجتهدين وفكر المفكرين ، واستنباطات المربين ، وهنا نود أن نبرز عدة أمور :

١ - أن ثبات المصدر والغاية ، يوقف التربية الإسلامية على أرضية إسلامية ربانية ، ويحفظ عليها كيانها ويصون حرمتها ، ويبرز أصالتها ، ويعين على استمراريتها ، ومع ذلك ، هى حركية واقعية عملية ، قادرة على النمو والتطور والمواكبة ، جامعة بين الثبات والتطور .

٢ - أن حركية التربية الإسلامية تقع فى منطقة الوسائل وتصميم المناهج ، وهى منطقة لا تعرف الجمود فى واقع متحرك ، وعالم يموج بالحركة والتغيير ، ولا شك أن تصريح القرآن الكريم ، فى إمكانية التغيير ، ووقوع التغيير ، بل ووجوب التغيير ، يؤيدنا هنا تماما ، حيث يقول تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١] .

٣ - أننا أشرنا سابقا إلى أن الناس أدرى بشئون دنياهم فيما يتعلق بالوسائل ، إذ هى موكولة إليهم ، يجتهدون فيها ، وفق ما يناسبهم ويسد حاجتهم ، وييسر عليهم حياتهم .

وفيما يتعلق بوسائل التربية ، فهى موكولة قطعا إلى الإجتهاد والتطوير والتحديث ، وحتى ما منها جاء له ذكر فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فللاجتهاد فيه مع ذلك مدخل ، بالتفنن فى ترتيب الأولويات ،

(١) الرعد ، من الآية ١١ .

والاستعانة بالأدوات المستحدثة ، واعتبار حال المربين ، وغير ذلك .

وقد جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية ذكر لعديد مما يدخل فى باب الوسائل التربوية ، من مثل : التعليم — الترغيب والترهيب — التبشير والإنذار — الموعظة — القدوة الحسنة ـ القصص وضرب الأمثال — البيئة — الثواب والعقاب — الدعوة إلى الله تعالى — الاعتبار والاستبصار ـ الذكرى والتفكر ـ التأديب البدنى — الوعد والوعيد — الحوار والمجادلة بالحسنى — إيثار اليقين وتجنب الظن — التحسين والتقبيح — نبذ التقليد الأعمى واتباع الهوى — الإغراء والتحذير — وغير ذلك كثير مما احتوته نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٤ — أن المجال ينفسح هنا لمصادر التشريع الإسلامى ، غير القرآن الكريم والسنة النبوية ، من مثل : الإجماع ، والقياس ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ، وشرع من قبلنا ، والاستحسان وغيرها ، مما هو مفصل فى مظانه من كتب الفقه وأصوله ، هذه المصادر — فى الواقع — تفتح المجال لحركية التربية ، كما فتحت المجال لحركية الشريعة . ويمكن توظيفها تربويا بشكل جيد .

٥ — أن التربية فى الإسلام وإن كانت تختلف مع الأنظمة التربوية العلمانية ، اختلافا أساسيا من حيث المنطلقات والمقاصد ، بل ومن حيث الوسائل الأساس للتربية ، إلا أنه يمكن ـ على نحو ما ـ أن تستفيد التربية الإسلامية من غيرها ، فيما تبذله من بحوث ودراسات تربوية ، وفيما تستحدثه من وسائل وأساليب ، وتوظفه من آليات وأدوات . بل وأن

تستفيد من كل ما تسفر عنه الجهود الإنسانية من أفكار وتقنيات . وهنا بعد آخر من أبعاد حركية التربية فى الإسلام .

إن القرآن الكريم لم يرفض الإفادة من الآخرين ، حيث قص أخبارهم ، وأحيا تاريخهم لأخذ العبرة والعظة ، أى للتربية قطعا ، والأمر هنا لا يختلف قليلا أو كثيراً ، وهنا يحسن أن نشير إلى نقطة خلاف واختلاف جوهرية وأساسية ، بين ما تقرره التربية الإسلامية ، والتربويات الأخرى ، فى جانب الوسيلة الأساس فى التربية . « وفى هذا الصدد ، تعرض علينا النظريات التربوية العلمانية — وبخاصة نظرية [ديوى] السائدة ـ أن التعليم لا يكون إلا من خلال الخبرة أو التجربة ، وهذه النظرية تطرد المنهج الإسلامى ابتداء .

ذلك أن المنهج الإسلامى — وهو يقرر الخبرة ويعترف بها — يضع فى الأساس المعرفة عن طريق الوحى ، وهى لا تأتى من خلال الخبرة ، وإنما تأتى من خلال التلقى من الرسول ﷺ ، ولا سبيل إلى مواجهة هذا التحدى والتغلب عليه إلا بأن تتغلغل فى نسيج البناء التربوى فى المجتمع الإسلامى ، المعارف الواصلة إلينا من خلال الوحى ـ قرآنا وسنة ـ كحقائق مسلمة من طريق الوحى »(١) .

من ثم نقول : إن أخص ما يخص التربية الإسلامية ، ولا يزاحمها فيه مزاحم ، هو ثبات المصدر والمبادىء والغاية ، مع مرونة التطبيق ، فى الوقت الذى تدين كل النظريات التربوية العلمانية وغير العلمانية ، لعقيدة التطور والتغير فى كل ما يتعلق بالتربية .

---

(١) الفكر الإسلامى ، ص ٢٥٠ ، مرجع سابق .

ولهذا، ستظل التربية الإسلامية إسلامية، وستظل هذه التربية تقدم الكثير والكثير، ولن تعيا بواجبها يوما.

إن التربية فى الإسلام تنبثق من عقيدة الأمة، وبما أن عقيدة الأمة ثابتة لا تتغير، فتبقى الأهداف المنبثقة عنها كذلك ثابتة، وإن طرأ تغير فذلك يسرى على الوسائل والأساليب لا الأهداف، وحتى الأهداف المرحلية تتدرج ضمن هذا المعيار؛ لأنها تحدد ضمن إطار الهدف العام، وتغيرها إنما يكون فى إطار الوصول لتحقيق الهدف العام، ومن ثم فهى تتدرج فى الثبات للوصول إلى الهدف النهائى المراد منها.

وهذا الثبات لا يمنع هذه الأهداف من التفاعل مع مستجدات الواقع المعاصر، بمرونة ويسر، إذ المرونة هنا تكون ضمن إطار ثابت، يكفل للهدف التربوى جدية منضبطة فى التفاعل، لا تتعدى الإطار الإسلامى المرسوم لها ولا تزيغ عنه، فيبقى الهدف التربوى ثابت الأصول، راسخ التصورات، متجدد العطاء، ما دامت حركيته مضمونة منضبطة ضمن إطاره العام»[١].

ولنا أن نقول: إن ثبات الغاية من إملاء العقيدة الإسلامية. وثبات المصدر من عطاء العقيدة والشريعة والأخلاق، فالتربية الإسلامية تتأسس على قواعد العقيدة، وأصول الأخلاق، وثوابت الشريعة.

ومن هنا يأتى دور التربية فى دعم الوحدة الإسلامية، وتنميتها، والحفاظ على الشخصية الإسلامية ودعمها.

---

(١) جوانب من الواقع التربوى المعاصر فى ضوء العقيدة الإسلامية، ص ٣٢، ٣٣، مرجع سابق.

رابع عشر: أنه لا ضير على التربية الإسلامية فى أن تنفتح منهجيا على الفكر الوضعى، من حيث التصميم والصياغة، فالمناهج - كالوسائل - تقبل الاجتهاد والحركية، وذلكم هو الوجه الآخر لدينامية التربية الإسلامية وحيويتها، طالما تمت المحافظة على إسلامية وربانية المرجعية والهدف الكلى العام.

التدرج والترقى:

إن التربية من حيث إنها تنشئة وتعليم وتدريب وتعهد ورعاية وتنمية، لابد أن تتبع أسلوب التدرج والترقى. ولا محيص لها عن ذلك. وينبغى - والحالة هذه - أن تصاغ المناهج التربوية، بحيث تواكب أوضاع وأحوال وظروف ومراحل نمو المربين، وإمكاناتهم فى الاستيعاب والتعلم.

من ثم كانت مناهج التربية الصحيحة، آخذة بالتدرج والترقى، والتتابع والصعود، سائرة فى خط متصل متواصل صاعد فى اتجاه بناء الشخصية شيئاً فشيئاً، وإنضاجها مرحلة مرحلة.

وحيث يحق ذلك، فإن عنصر الزمن أساس فى العملية التربوية، ومعه عنصر التدرج، وتصير هذه العملية نشطة فاعلة على طول مراحل عمر الإنسان من المهد إلى اللحد.

والتربية فى الإسلام لا تشذ عن ذلك، بل تؤمن به وتثق فيه وتعمل بمقتضاه. فتتمحور حول معانى التنشئة والإعداد للإنسان منذ ولادته حتى وفاته فى ضوء المنهج الربانى، وتراعى فى كل ذلك جوانبه النفسية والعقلية والجسدية والعلمية، وتطورات هذه الجوانب على سلم الزمان

والمكان . من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى الشباب إلى الرجولة ، فالكهولة فالشيخوخة .

وبين يدى هذا الملمح الأصيل والواضح للتربية فى الإسلام يمكننا التأكيد على عدة أمور :

أولا : القرآن الكريم ، وهو دستور التربية الأساس فى الإسلام ، فوق شموله ورعايته لكل ماهو تربية ، يعطينا درس التدرج والترقى واضحا ، من واقع نزوله منجما على مدار الدعوة الإسلامية فى حياة صاحبها ﷺ ، كما يعطينا درس التنجيم درس التربية فى نفس الوقت ، فنزول القرآن الكريم منجما ، ينطوى على حكم جيدة وجليلة :

لقد نزل هذا الكتاب العظيم منجما على اثنتين وعشرين سنة وشهرين، لأمرين ينطويان على حكمتين : تربوية وإعجازية ، وفى نطاق الحكمة التربوية لنزول القرآن الكريم منجما مفرقا حسب الأحداث والوقائع ، نلمس أن القرآن الكريم يقوم «بدوره فى تربية المسلمين أولا بأول ، إذ ينزل بالقدر الذى يحتاجون إليه فى عملية التربية ... ويتزايد نزوله بمقدار مايحصل لهم فى هذا الطريق .

بخلاف ما لو كان قد نزل دفعة واحدة ، فإنه يكون عندئذ كتابا يحفظونه ، ولكنه يكون أقل تأثيراً فى حياتهم وتربيتهم ، وقد يعسر عليهم معرفة مايحتاجون إليه فى الحالة التى تطرأ عليهم »(١) .

وفى هذا الصدد يأتى قول الحق تبارك وتعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه

---

(١) الفكر الإسلامى، ص ٦٤ ، مرجع سابق .

على للناس على مكث ونزلناه تنزيلا)(١) ، وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)(٢) ، وقوله تعالى : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ...)(٣) ، وقوله تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدىً وبشرى للمسلمين)(٤) .

إن نزول القرآن الكريم منجما ، بحسب الوقائع والأحداث ، والحاجة الطارئة ، لاشك يدخل فى صميم التربية ، والمنهج التربوى ، وكأن الحق تبارك وتعالى . لما نزل كتابه العزيز على هذا النحو . والحكمة هى التربية ، يوجه سبحانه إلى ماينبغى أن تعيه الدعوة إلى الله تعالى من أمرها وأمر التربية التى تمثل عنصراً قويا من عناصرها ، وإلى ماينبغى أن تتوخاه الدعوة والتربية من تدرج ، ومن أن ينحو توجههما منحى عمليا تطبيقيا ، وأن التربية الحقة هى ماتراعى الحال والحالة والحاجة ، وتراكم الخبرات والتجارب شيئا فشيئا .

ثانيا : ومن داخل قضية التدرج التربوى ، نجد القرآن الكريم يتحدث عن تكوين الإنسان ومراحل خلقه ، فى بطن أمه جنينا ، وبعد خروجه إلى الحياة ، فى استقصاء وتتابع ، من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة ، ثم خلق المضغة عظاما ، ثم كسو العظام لحما ، ثم الإنشاء خلقا آخر ، ثم الولادة طفلا ، ومنها يبدأ مراحل حياته الأرضية ، من بلوغ الحلم ، إلى بلوغ الأشد ، إلى الكهولة ، فالشيوخة ، ثم مرحلة أرذل العمر ، كما تحدثت السنة عن مرحلة الشباب وغيرها .

---

(١) الإسراء، آية ١٠٦.
(٢) الفرقان، آية ٣٢.
(٣) هود، آية ١٢٠.
(٤) النحل ، آية ١٠٢ .

هذه المرحل المتلاحقة، هي في حقيقتها أطوار وتارات من النمو الجسدي والعقلي والنفسي والوجداني، فيما يشبه التأكيد على أن الإنسان وهو يقطع هذه المراحل ويتقلب فيها، له في كل مرحلة إمكانات خاصة، وحاجات مناسبة، تتطلب تعاملا خاصا، ورعاية خاصة، حتى تتنامى طاقات وقدرات الإنسان في سلاسة وترابط، الأمر الذي ينبغي معه، أن يتدرج تربويا، وأن تعي التربية ذلك تماما.

ثالثا: إن الحق تبارك وتعالى، لما أراد خلق الإنسان، وأراده سبحانه مخلوقا تربويا، لم يخلقه - من ثمة - بالغا مكتملا ناضجا، عالما خبيراً واعيا، إذ لو كان أمره كذلك ما كان بحاجة إلى التربية، وإنما خلقه سبحانه فارغا خاليا من العلم، وفي الوقت نفسه جهزه وأعده للتعلم واستقبال العلم والخبرة، فزوده بأدوات وآلات وقوى الإدراك والتعلم والتعليم والوعي بمعنى أنه أراده سبحانه قابلا، وبالقابلية هذه - وعبر الزمان والمكان - يتعرض للمعارف والخبرات، ويتدرج في سلم الترقي والصعود، لولا التربية ما ترقى الإنسان، ولولاها لبقيت قواه ساذجة عاطلة، واقفة عند حافة القابلية.

وذلك ما يؤكد على منهجية التربية في الإسلام، وإيمانها المطلق بالتدرج، ويدلنا على كل ذلك، بل وعلى أكثر من ذلك، نصوص قرآنية بارزة في ثنايا القرآن العظيم، منها قوله تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[1].

---

(١) سورة النحل، آية ٧٨.

وقوله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)[1].

وقوله تعالى: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)[2].

وهذا القول الكريم له دلالته، في أن الإنسان معروض على العلم والتعليم واكتساب المعارف والخبرات، طيلة حياته ومدة عمره وأطواره السابقة المتلاحقة، إلا مرحلة أرذل العمر، وهي آخر مراحل حياته، حيث تضعف فيها قواه، ويخف وعيه، فلم يعد معرضاً للعلم والخبرة، ومن ثم فهو معروض على التربية فيما دون هذه المرحلة.

رابعا: ومن واقع منهجية التدرج في التربية الإسلامية كذلك، لم يكلف الإنسان بالشرع إلا في مرحلة لاحقة لمراحل أولى من النمو والترقي، ممثلة في مرحلتي الطفولة والصبا، ثم يرقى إلى مرحلة البلوغ، وهي مرحلة التكليف بالأوامر والنواهي، حتى يتوفر للإنسان مستوى جسدي وعقلي ونفسي، يؤهله لأن يكون مسئولا، يمارس اختياراته برشد ووعي، حتى لا يدخل في دائرة التكليف بما لا يطاق، والله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

يبلوغ هذه المرحلة، يطالب بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي مرحلة الإلتزام القلبي بالإسلام. ثم يدخل منها إلى ما تقتضيه من العبادات والمعاملات، فيدخل من ثمة في بيئة

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٣٦.

(٢) سورة الحج، من الآية ٥.

التكليف، بكل متطلباتها وممارساتها وسلوكياتها، فيدخل فى مرحلة من التربية جديدة، وهى التربية بالإسلام والايمان والإحسان، ثم إنه لم يكن قبل البلوغ مهملا تربويا، بل نالته التربية، حتى وهو فى رحم أمه، حتى وهومشروع إنسان، بحسن اختيار الأب والأم، وصدق الله العظيم. إذ يقول: (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً)[1].

وأبرز معالم مراحل ما دون البلوغ، أن الإنسان ـ ابتداء ـ يولد على الفطرة، أى الخلقة السوية المؤمنة بالله تعالى وبتوحيده، (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[2].

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا...)[3].

فإن خضع فى هذه المرحلة لتربية إيمانية موحِّدة، وبيئة مسلمة حقة، سلمت فطرته، ونمت وأنبتت، فشق طريقه نحو دين الله تعالى (الإسلام)، دين الفطرة، وفطرة الدين، وإن خضع لعمليات تربوية جائحة فهو لها، ثم تنطمس فطرته، فيضل قلبه، فيضل طريقه.

---

(١) سورة الإسراء، آية ٢٣.

(٢) سورة الروم، آية ٣٠.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.

كما صح فى الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ...) الحديث.

ولنا أن نفهم أن هذه المرحلة (دون البلوغ) هى مرحلة التنشئة الحاسمة، فى صياغة وجدان الإنسان وقلبه، بحيث يخرج منها إما على الفطرة المؤمنة، وإما على الفطرة المشوهة، فطرة الإلحاد والشرك.

إن مرحلة التكليف وماقبلها ومابعدها أيضا هى آية على منهجية التربية فى الإسلام وتدرجها.

خامساً: ومن دلائل إبتناء التربية فى الإسلام على التدرج، واقع الدعوة فى حياة النبى ﷺ، فى مستويها النظرى والتطبيقى.

فالرسول ﷺ: مارس فى الفترة المكية الدعوة إلى إزاحة العقائد الباطلة فى الله تعالى وإلى البعث والتوحيد، وإرساء العقائد الحقة فى كل ذلك، ولعل ماكانت تقوم عليه الدعوة فى هذه الفترة قاعدة (التخلية قبل التحلية). وإعادة إحياء الفطرة وتخليصها من أدران الشرك والوثنية لتستقبل دين الفطرة الإسلام فكأن هذه الفترة شهدت أداء تربويا للدعوة إلى الله تعالى.

ثم فى الفترة العاقبة، فترة الدعوة فى المدينة المنورة، دخلت الدعوة فى مرحلة جديدة، مبنية على المرحلة السابقة. فكانت مرحلة التكليف بأصول العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد، ومرحلة بناء الدولة الإسلامية على شرف الدعوة، ثم تنامت التشريعات فى كل الإتجاهات، على مدى عشر سنين، حتى أكمل الله تعالى الدين وأتم النعمة ورضى الإسلام دينا، مصداقا لقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت

عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) . فكأن الدين ذاته خضع لعملية إكمال وإتمام ، أى خضع لمنطق التدرج والتتابع .

إن إمتياز فترتين رئيسيتين فى الدعوة إلى الله تعالى ، وخضوع الدين فيهما للإكمال والإتمام ، وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة ، لهو آية واضحة على منهجية التدرج ، ولا يستطاع الفصل هنا بين الدعوة والتربية ، فالدعوة فى حقيقتها تربية ، والتربية فى حقيقتها خادم الدعوة .

وداخل ذلك كله جوانب تربوية عديدة ، تتعامل مع المجتمع الإسلامى آنذاك ، على كافة المحاور والمستويات ، والأحوال والنوعيات فلم يكد يفلت من طائلة التربية : صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى ، جاهل أو عالم .

سادسا : من الممكن أن يكون حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية ومراتبها ، من الأمارة إلى اللوامة إلى المطمئنة ، مؤشراً قوياً إلى إمكان تربية النفس . ومعالجة قواها ، فى تدرج وترق من أدنى السلم ، وهو الأمارة ، إلى أعلاه وهو المطمئنة الراضيه المرضية .

يقول الحق تبارك وتعالى فى حق النفس الإنسانية : (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ...)(٢) : ويقول سبحانه : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة)(٣) . ويقول سبحانه :

(١) المائدة ، من الآية ٣ .
(٢) يوسف ، من الآية ٥٣ .
(٣) القيامة ، آية ١ ، ٢ .

(ياأيتها النفس المطمئنة . إرجعى إلى ربك راضية مرضية)(١) . ويؤيد ذلك قوله تعالى فى مسئولية الإنسان عن نفسه تزكية وتسفلا : (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)(٢) . وقوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى)(٣) .

وفى ذلك دعوة إلى أن يعرف الإنسان نفسه . ويعرف حالها . ثم يبدأ فى تربيتها . من حيث تقف عند هذه الحال . وقد يكون هو حال (الأمارة) . فيقتضى البدء معها من أول درجات السلم . ولنا أن نقول : تربية النفس فى تدرج وترق . هو فى نفس الوقت تربية للإنسان . وتربية له فى أخطر مواقع تربيته وهو نفسه التى بين جنبيه : فالشخصية الإنسانية ، تبدأ من النفس . وتتحدد بالنفس . وتسفل أو تعلو بالنفس .

ونخلص من كل ذلك لنقول : إن مناهج التربية الإسلامية المعاصرة . ينبغى أن تعى ذلك تماماً . وأن تصمم عناصرها فى ضوئه ، فى ضوء التدرج الرحيم . وصولا إلى صياغة الإنسان المسلم فى أناة وصبر ومثابرة .

ثم نقول : إن التدرج فى التربية ، يؤتى أكله ويثمر ثمره . لو راعى سلم الأولويات . ومنطق الضروريات والحاجيات والتحسينيات . فى ترتب متناسق . وتسلسل مترابط .

(١) الفجر ، آية ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) الشمس ، آية ٧ — ١٠ .
(٣) النازعات ، آية ٤٠ ، ٤١ .

العموم والشمول :

الإسلام رسالة عامة ودين شامل تام كامل ، ودعـوة لكل الناس فى كل زمان ومكان ، بل عامة للجن كذلك ، من ثم كان هو الدين الخاتم . وخُتم النبيون ببعثته ﷺ : هذا مايهدينا إليه القرآن الكريم فى محكم الآيات ، يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون)(١) . ويقول سبحانه : (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً)(٢) ، ويقول تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)(٣) .

وفى صحيح السنة ، قال الرسول ﷺ : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود .. الحديث)(٤) . وعن الختم ، يقول تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله ، وخاتم النبيين . وكان الله بكل شىء عليما)(٥) .

---

(١) سبأ ، الآية ٢٨ .
(٢) الأعراف ، من الآية ١٥٨ .
(٣) الأحقاف ، آية ٢٩ ، ٣١ .
(٤) شرح صحيح مسلم ، الإمام النووى ، جـ ٥ ص ٣ ، ط محمود توفيق
(٥) الأحزاب ، آية ٤٠ .

ويقول الرسول ﷺ : (فضلت على الأنبياء بست . . .) وذكر منها : (وأرسلت إلى الخلق كافة : وختم بى النبيون)(١) .

وحيث ذلك كذلك . فإن الإسلام صالح لكل زمان ومكان . ولكل جنس ولون من البشر . ومن حيث إن رسالة محمد ﷺ ، خاتمة الرسالات وعامة عموماً مطلقاً ، فلا بد أن تكون مشتملة على كل شىء يصلح به شأن البشرية : ولابد أن تكون صالحة لكل مايعترض الإنسان فى حياته ، أو يجد له من أمر فى معاملاته حتى آخر الزمان :

ولأن مصدر (الإسلام) هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والله يقول فى وصف القرآن الكريم : (مافرطنا فى الكتاب من شىء)(٢) ... والقرآن الكريم والسنه النبوية الشريفة قد إشتملا على على كل مايحتاج إليه الإنسان فى عقيدته ، أو عبادته ، أو معاملاته مع الآخرين ، سواء أكانت معاملات شخصية أو معاملات مالية أو معاملات دولية .

يدل لذلك قول الرسول ﷺ : (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً . كتاب الله وسنتى)(٣) ، (٤) .

هذه الحقائق ، تفيدنا هنا كثيراً ، حيث يمكننا القول عن وثاقة : إن التربية فى الإسلام عامة شاملة . لأنها — ببساطة — تعبير عن شمولية

---

(١) شرح صحيح مسلم ، جـ ٥ ، ص ٥ ، سابق .
(٢) الأنعام ، من الآية ٣٨ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) فى الفكر الإسلامى ، ص ٥٨ ، سابق .

الإسلام فى إتجاه بناء الإنسان . وبناء علاقاته بنفسه وبخالقه سبحانه ، وبغيره ، بل وبالحياة من حوله . أى أنها تتعامل مع الإنسان بشمولية تستوعبه هو بكل طاقاته ، وتستوعب علاقاته وارتباطاته .

من هذا التصور يمكننا سوق العديد من الشواهد والأدلة المؤكدة ، والإجتهادات التى تفيد فى تعميقه وشموله :

أولا : إن شمولية التربية فى الإسلام، تعنى شمولية النظرة إلى الإنسان الذى هو المستهدف بالتربية والتأهيل، من حيث قواه وحاجاته ومراحل نموه وتطوره ، ومن حيث وضعه من مفردات الكون وعناصر الوجود ، وعلاقاته المختلفة ، وواجباته وحقوقه ، وتأثره وتأثيره ، ... إلخ .

إن الأسلام وهو يعالج أمر الإنسان كله ، وأمر الحياة كلها ، وأمر الإنسان مع الحياة وأمر الحياة مع الإنسان ، من داخل أنه الدين العام الخاتم الشامل ، يقوم منهجه التربوى على صياغة الشخصية التى تستأهل هذا الدين ، وتستجمع خيوطه وخطوطه فى نسيج واحد ، بمستوى من التوازن والتكامل والوسطية .

وإلا فكيف تفهم شمولية الدين ، إذا انتقص الإنسان ، أو إذا انتقصت نظرته إلى الإنسان ؟.

إن دعوى عمومية الدين ، لا تقبل إلا إذا وفّر للإنسان — الذى هو المخاطب بالدين — جميع ما يتطلبه الإنسان ، وما يطلب له الإنسان ، عبر الزمان والمكان ، ولا تقبل دعوى صلاحية الدين الصلاحية العامة إلا إذا أمد هذا الإنسانَ بكل ما يصلحه ويُصلح له ، على هذا المنهج الربانى ، منهج رب الدين ورب الإنسان .

من هنا قلنا سابقاً فى أكثر من موضع: إن التربية فى الأسلام إسلامية وليست فقط دينية ، وأن الإنسان هو موضوع التربية ، بكل قواه وملكاته وأحواله وأطواره ، وأن الإنسان هو فاعل التربية ومفعولها ، وأن وسائل التربية تتكامل جميعا إزاء الإنسان ، وأن الهدف الأساسى من التربية فى الاسلام ، وهو العبادة ، ينتظم كل حركة وسكنة للإنسان .

وأبرز ما يصور هذا الشمول ، قول الحق تبارك وتعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين)(١) ، وحياة الإنسان إذن فى أعلى مراتبها هى أن تكون لله تعالى ، وهى إذن فى كل مجاريها وتقلباتها ينبغى أن تكون لله ، والإنسان إذن ينبغى أن يكون بكليته داخل هذا الحمى ، حمى الله تعالى ، ومع ذلك ينبغى أن يكون منهج إعداده وإمداده شاملا ، وفى هذا الإتجاه ، إتجاه أن يكون الإنسان لله تعالى ، فى جسده ، وعقله ، وقلبه ، وحسه ، وسره وعلنه ، وروحه وإرادته ، وغرائزه واستعداده ، وقوله وفعله ، وذكره وأنثاه وأفراده وجماعاته . وكبيره وصغيره . وعظيمه وحقيره . وحاضره ومستقبله ، وعمله وأمله .

إن الإنسان هو قلب الدعوة الإسلامية الشاملة . فكان مشمولا بشمولها ، والتربية الإسلامية هى قالب الدعوة الإسلامية . فكان الإنسان هو مركزها ومحورها . فمن ثمة إذن هو منطقة عمل الدعوة والتربية معا .

---

(١) الأنعام ، آية ١٦٢ .

وكل جهاد الدعوة وجهود التربية إنما لإعداد الإنسان وإنارة دربه فى الحياة ، على نور الله تعالى ، نور شريعة الغراء ، التى لا تعنى أكثر من تعليم الإنسان وتأديبه وتهذيبه وهدايته ورحمته . أليست شريعةَ ، الخالق العظيم ، العليم بما ومن خاق : (ألا يعلم من خاق)(١) . شريعةَ الرحمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٢) ، شريعةُ الله الكاملة التامة المرضية منه تعالى . شريعةَ الفطرة السوية ، الوافية بحاجات الإنسان المادية والروحية ، وحاجات الحياة على وجه الأرض .

فكان من شأن التربية أن تناشد الفطرة وتنشدها ، وتتسع لكل ما يتسع له التكوين الفطرى فى الإنسان وإلا كانت إخلالا بالفطرة . أى إخلالا بخالق الله تعالى .

وما كان لشريعة الله تعالى . أن تغفل أو تتغافل عن جانب من الإنسان أو جانب من الحياة . وإلا لما كان شأنها الصلاحية العامة . التى تزهو بها على كل شريعة ودين وشرع .

ثانياً : من داخل إقرار الإسلام بتأثير كل من البيئة والوراثة . امتدت رعايته للإنسان حتى وهو مشروع إنسان [إن جاز التعبير] ، فوجه إلى حسن اختيار الزوجة . وحسن اختيار الزوج . لأنهما مصدر الوراثة للأبناء . ولأنهما عنصر بيئة الطفل الأولى . من خلال الأسرة . ويهدينا هنا فى ذلك . قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

(١) الملك ، من الآية ١٤ .

(٢) الأنبياء ، آية ١٠٧ .

وأنثى ...)(١) الآية . وقوله ﷺ : [تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك](٢) . وقوله ﷺ : [إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير](٣) . وقوله ﷺ : [تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس](٤) .

وهنا نعثر على عنصر واضح من عناصر شمول التربية فى الإسلام ، من حيث إن عناية الإسلام بالإنسان تشمله حتى قبل أن يستوى إنسانا ، بل وهو لا يزال فى علم الغيب ، ثم وهو حمل مستكن فى بطن الأم ، عبر مراحل جنينية متلاحقة . [إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة . ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع: برزقه وأجله .وشقى أوسعيد..]الحديث(٥)

فهو فى الرحم حى مرزوق . تصنعه عين الخالق جل وعلا ورعايته . ثم يخرج إلى الحياة طفلا ... إلخ مراحل حياته . ولا شك أن عناية الإسلام بالإنسان هذه العناية الشاملة تؤكد شمولية التربية فى الإسلام . حيث الأمر لايخرج هنا عن الرعاية والصيانة والتنمية فى بيئة طبيعية صالحة. [رحم الام] يدعمها اختيار حسن للزوج والزوجة .

ولا يغيب عنا هنا توجيه الإسلام لضبط العلاقة الجنسية بالزواج

(١) الحجرات ، من الآية ١٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه . والحاكم فى المستدرك وصححه . عن عائشة رضى الله عنها .

(٥) متفق عليه .

حفاظا على الإنسان، وهذا ماله دخل أساس فى حياة الإنسان وسلامته
النفسية والقلبية، وتوجيهه إلى (الاغتراب) فى الزواج بالحث على الزواج
من الغرائب دون الأقارب (اغتربوا ولا تضووا)(١)، وتوجيهه إلى
مراعاة آداب الجماع بين الزوجين، وأن تكون العملية مصحوبة بالدعاء
وإرادة السلامة لما عساه يأتى من ثمرة ذلك (اللهم جنبنا الشيطان
وجنب الشيطان ما رزقتنا)(٢).

لاشك أن ذلك كله وغيره، يظهر عناية الإسلام بالإنسان، عناية لم
تودع فيه جانبا، ولم تودع من حياته مرحلة، ولا شك أن ذلك أدخل
فى باب التربية والإعداد، الإعداد للفرد المسلم الصالح النافع القوى
المتين السليم المعافى المنتج، ومع ذلك يبـدو شمول التربية وإحاطتها
وامتدادها إلى كل مايتصل بالإنسان، ويتصل به الإنسان.

ثالثاً: وحيث إن التربية فى الإسلام عامة - وينبغى أن تكون
عامة - فإنها إذن مسئولية الجميع: الأسرة - المدرسة - المسجد -
الإعلام - التثقيف - الحاكم - المحكوم - الذكر - الأنثى
الجامعة... الخ، لايشذ عن الإسهام فى العملية التربوية أى من يستطيع
أن يقدم شيئا، ولا يشذ عن الوجهة الصحيحة للتربية فى الإسلام شاذ،
أيا كان.

وألا تعارض جهة تربوية جهةً أخرى، بمعنى أن لاتهدم جهة

---

(١) أورده ابن الأثير فى النهاية فى (غريب الحديث والأثر) مادة (ضوا).

(٢) من حديث متفق عليه، عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ماتحاول أن تبنيه الأخرى، كما نشاهد الآن، من تنافر وتناقض بين
الجهات المختلفة التى تعمل فى نطاق الإعلام والتوجيه والتعليم.

لابد من توفير بيئة صالحة متكاملة، أيا كانت هذه البيئة، إعلامية،
أو تثقيفية أو تعليمية، أو توجيهية... الخ، بحيث تكون كل منها
بيئة جيدة، ثم أن تكون جميعها متوحدة فى بيئة إجتماعية متكاملة،
موحدة الهدف، واحدة المسعى، حتى لا يحدث إنشقاق فى العملية
التربوية، المؤدى إلى إهدار الجهود، ثم إلى الإنشقاق فى الشخصية
الإنسانية ذاتها.

ليس مقبول تربويا أن تعمل جهة فى اتجاه ما، ثم تعمل أخرى فى
إتجاه آخر، ثم ثالثة فى إتجاه ثالث وهكذا.

وبكل الأسف، هذا هو الواقع، وهذا ما أسهم فى تناقض الجهود،
فضياعها، فضياع أجيال أبناء الأمة الإسلامية.

لايمكن أن تأتى التربية الإسلامية ثمرتها إلا باستثمار كل الطاقات
والجهات والجبهات فى اتجاه إيجاد مناخ منسجم مترابط، وبيئة كلية
متناسقة، وفى هذا الصدد، يتحتم الإتفاق على الهدف، وعلى المنطلقات،
وعلى معالم مناهج التربية، ثم يكون العمل والتنافس.

إن واقع التربية فى العالم الإسلامى اليوم يعانى من ضائقة تربوية،
بل أزمة تربوية، تعود فى أصلها إلى تناقض المناهج، تناقض المبادىء،
تناقض الأهداف، العائدة بدورها إلى إنتماءات خاصة، وولاءات لثقافات
وقيم دخيلة، ومصالح ومنافع متضاربة، ورؤى واجتهادات ينقصها
الإخلاص وإيثار الخير.

لابد من تنحية الأزدواجية التعليمية والتربوية فى العالم الإسلامى، التى

استقرت واستبدت واستفحلت ، وكشفت عن وجهها القبيح ، وغايتها المشبوهة ، و«وإذا كانت التربية غير الإسلامية تجرى عمليات تقويم مستمر ، لتحسين مناهجها وتطوير أساليبها ، فنحن ـ كذلك ـ فى العالم الإسلامى ، فى أشد الحاجة إلى وقفة متجردة موضوعية ، بعيدة عن التعصب ، وخالية من الإندفاع ، لنجرى تقويما سليما على أسس علمية ، بعيدة عن التعصب ، وخالية من الإندفاع ، لنجرى تقويما سليما على أسس علمية لمناهجنا ونظم تعليمنا.

وفى ضوء مبادئنا وتعاليم ديننا ، وتحقيقا لأهدافنا وغاياتنا ، ينبغى أن لا تكون هناك أزدواجية فى التعليم . . .»(١) .

ونقول : لقد ابتلينا بأكثر من الإزدواجية ، لقد ابتلينا بالفوضى التربوية ، ووصلنا فيها إلى حد الكارثة ، التى تؤذن بالإنهيار والتصدع ، فى أخص مايخص مجتمعاتنا الإسلامية ، وهى أن تكون إسلامية ، يظللها الوعى بالإسلام ، والعمل بالإسلام والولاء للإسلام .

هذا ماحاق بنا حين وقعنا فى براثن الآخَر ، وارتمينا فى ثقافته وقيمه الشوهاء ، وعملنا لها بمناهجه هو ، فى التربية والتعليم والحياة . وفرحنا بذلك عن بلاهة وغيبوبة ، فصرنا مسوخا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .
إنه «ماتزال صورة التعليم فى كثير من بلاد العالم الإسلامى هى هذه الصورة الشوهاء التى نقلها عن غير المسلمين ، فلا هو بلغ مابلغوا ، ولا هو أحتفظ بأصالته . وحافظ على كيانه»(٢) .

---

(١) نحو مناهج إسلامية ، ص١١ ، ١٢ ، مرجع سابق .

(٢) المصدر نفسه الصحيفة نفسها .

رابعاً : أن التربية الإسلامية مع عمومها وشمولها فى الموضوع والمناهج والوسائل ، وغير ذلك مما أوضحنا ، فإنها ـ ومن داخل هذه العمومية أيضاً ـ تستجيب لسلم الأولويات ـ كما أشرنا سابقا ـ وتستجيب كذلك للتخصص وتراعى الفوارق بين الناس ، والمراحل ذات الأهمية الخاصة ، والحالات الخاصة ، أى أنها تتعامل مع الإنسان فى كل ظروفه وحالاته وتقلباته .

ويدلنا ذلك على أن التربية فى الإسلام تتخذ من العموم والشمول قاعدة عمل ، حيث يظل الإنسان بكل علاقاته وبكل حياته وبكل خصائصه وظروفه المشتركة العامة ، وبكل خصائصه وحياته كمسلم ، موضع عناية ورعاية الإسلام ومنهجه التربوى .

ومع ذلك ، فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الناس مختلفين فى المواهب والقدرات ، والظروف والحالات ، والممارسات والمسئوليات ، ثم إنهم يختلفون كذلك ، من حيث المصيبة والعافية ، والصحة والمرض ، والتكوين النفسى ، وغير ذلك ؛ فالإنسان مع أنه تجمعه بأخيه الإنسان جوامع وأواصر وأسباب وعلاقات اجتماعية ، فإن كثيرا من عناصر التميز والإمتياز والظروف الخاصة ، تجعل الأفراد ، بل والجماعات على نوع من الخصوصية الفردية والإجتماعية .

من هنا ، قلنا إن التربية فى الإسلام ، ترعى الإنسان من حيث هو ، ترعاه وهو فى جماعة ، وترعاه وهو فى ظروف خاصة ، وترعاه وهو ذو استعداد خاص .

أما عن خصوصية بعض المراحل فى حياة الإنسان : فإننا نلمس أن مرحلة النشأة والطفولة تأخذ وضعا خاصا يوحى بخطرها وخطورتها

فى مدارج حياة الإنسان ، وسلم كيانه وشخصيته ، الأمر الذى يتحتم معه التعامل مع الإنسان فيها بخصوصية تربوية واعية .

ويهدينا فى ذلك قول تعالى : (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين)(١) .

إذ هنا ينعى الحق تبارك وتعالى على الذين يلحدون فى حقه سبحانه ، فيجعلون له تعالى الولد ، ويدعون أنه اصطفى البنات على البنين ، أى جعلوا له من الولد البنات ، فى الوقت الذى يأنفون فيه من البنات ، ينعى الحق تبارك وتعالى عليهم ذلك ، فى قوله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم)(٢) .

ثم يقول سبحانه عقب ذلك : (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) ناعيا عليهم أنفتهم من البنات ، فى الوقت الذى لا يأنفون فيه من أن ينسبوهن إلى الله تعالى ، وخص من خصائصهن : التحلى بلبس الحلى ، والعجز عند الخصومة ، ولذلك دلالته تربويا .

فالمرأة وهى فى مرحلة النشأة ، تؤخذ بما يناسب جنسها وطبيعتها اللينة الناعمة ، إذ لم تطلب للخصومة والإنتصار والخشونة والمواجهة ، من ثم تربى وتنشأ على ما يؤكد أنوثتها وينمى فيها الإحساس بها ، من اتخاذ الحلى والتحلى والبعد بها عن مواطن الخصومة المفضية للخشونة والمواجهة .

---

(١) سورة الزخرف ، آية ١٨ .

(٢) نفس السورة ، آية ١٥ — ١٧ .

وبالمفهوم ، فإن الذكر لا يليق بجنسه وطبيعته ودوره المناسب له ، أن ينشأ فى الحلية والنعومة أو الليونة والضعف والإنكسار ، بل يربى على القوة والجلد واحتمال المسئولية ، والإنتصار للحق والعرض والأرض ، وينشأ على المواجهة والمنافسة والتصدى والصمود ، فدوره فى الحياة مستقبلا يتطلب كل ذلك .

من هنا نلمس خصوصية لمرحلة النشأة الأولى ، فيؤخذ الطفل بما يؤهله لأن يكون رجلا ، وتؤخذ البنت بما يلائم طبيعتها كأنثى .

ومما يهدينا كذلك إلى خطورة هذه المرحلة وخصوصيتها . ما أشرنا إليه سابقا تعليقا على حديث الرسول ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه ...) من أن التربية وبيئة الأسرة ، قد تحدث تشوها قبيحا فى فطرة المولود ، وداخل مرحلة الطفولة ، التى يكون فيها الإنسان متلقيا مستقبلا والتى اتفق علماء التربية الحديثين على جدواها وأثرها البالغ فى طبع الشخصية وانطباعها ؛ حيث يتخرج من هذه المرحلة ، وقد انطمست فطرته ومرضت جبلته المؤمنة الموحدة ؛ فالتاثت بالشرك والوثنية ، ومن ثم تبدأ مشكلة المشكلات فى الإنسان والحياة ، مشكلة الانحراف عن الألوهية والوحدانية .

إن الحديث هنا ينبه إلى ضرورة حراسة هذه المرحلة ورعاية أمرها ، وينبه — فى نفس الوقت — إلى ضرورة الالتفاف التربوى السليم حولها ، بما يتوقى الخطر ، ويستدرك الداء قبل أن لا يكون ثمة مستدرك .

ومن دلائل خصوصية هذه المرحلة كذلك ، قول الله تعالى : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر

أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل ربى أرحمهما كما ربيانى صغيرا)(١) ، إذ هنا ينبه الحق تبارك وتعالى إلى حسن معاملة الأبناء للآباء . عند بلوغهم الكبر . بما تقتضيه من جميل القول والفعل : رداً لحقهما ، وتقديراً لتربيتهما ورعايتهما له فى الصغر .

وإذا كنا نلمس فى كلام الحق تبارك وتعالى هنا ، مقابلة بين ما صار إليه الوالدان من الكبر الذى من لوازمه الضعف والوهن عادة ، وبين ما بذلاه للإبن من رعاية وحماية فى الصغر ، الذى من لوازمه أيضا الضعف البدنى والعقلى ، فيكون هذا فى مقابلة ذلك ، فيرد لهما فى حال قوته وضعفهما ما بذلاه له فى حال ضعفه وقوتهما .

رغم أن هذا المعنى واضح فى كلام ربنا سبحانه ، إلا أن مرحلة الصغر هنا تظل ذا دلالة قوية فيما نحن بصدده الآن ، حيث تتأكد مسئولية الأبوين وتتضاعف ، إذ لا حيلة للصغير فى شىء من نفسه ، وفيما حوله ، حيث تكون قواه البدنية والأدبية بسيطة ساذجة ، وحيث لا حيلة له فى كسب أو ترزق ، وحيث هو ينفتح على ما ومن حوله شيئا فشيئا . إذ قد أخرج من بطنه أمه لا يعلم شيئا . إن أمر الصغير الوليد الطفل كله بيد والديه قطعا ، وداخل مسئوليتهما وحدهما ، وداخل فطرتهما الراغبة دائما فى أن يكون الأبناء صالحين ناجحين . ذوى صحة وعافية . تقر بهم العين . ويطيب بهم القلب . فيبذلان الوقت والجهد والمال والراحة عن رضا وحب واستمتاع .

---

(١) الإسراء ، آية ٢٣ ، ٢٤ .

إن عطاء الوالدين فى هذه المرحلة عطاء غير مجذوذ ، وهو العطاء الذى يشمل كل حاجات الصغير وحالاته . العطاء الذى لولاه لانتقصت شخصية الإنسان من أطرافها . واهتزت من الأساس أركانها ، إلا من رحم الله .

إن إمتنان الله تعالى على الإنسان بتربية والديه له صغيراً ، مشعر قطعا بخصوصية مرحلة الطفولة والصبا ، ومن ثم نجد القرآن الكريم فى أكثر من موضع يوصى بالوالدين ، فى خصوص فترة الصغر ، من مثل قوله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ...)(١) ، وقوله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير)(٢).

ومن هذا القبيل : إمتنان فرعون على موسى عليه السلام بأنه رباه ونماه . كما جاء فى قوله تعالى : (قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنتين)(٣) . أى رعيناك وحميناك ونميناك وأنت وليد وطفل صغير .

ومن ثم حرم الإسلام التبنى . الذى هو نسبة الولد إلى غير أبيه . فى قوله تعالى : (... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله

---

(١) الأحقاف ، من الآية ١٥ .

(٢) لقمان ، آية ١٤ .

(٣) الشعراء ، آية ١٨ .

فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ... الآية)(١) . فالتبنى الذى يكون فى مرحلة الصغر ، هو حرمان للصغير من أبسط حقوقه وأخطرها فى نفس الوقت وهو أن ينسب إلى أبيه ، وهنا حرص من الإسلام على أن يحفظ على الإنسان فى نشأته أولا وقبل كل شىء نسبه وأصله ، اللذين فيهما انتماؤه ، وحاجته الفطرية ، ومن قبل ومن بعد ، فيهما سلامته النفسية وسلامه الداخلى .

وإنا لنجد السنة النبوية الكريمة غاصة بالتوجيهات الكثيرة فى إتجاه العناية بالمراحل الأولى من حياة الإنسان وأثرها ، من مثل قوله ﷺ فى الحديث الصحيح . (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله . . .) الحديث وذكر منهم: (وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى)(٢) . وقوله ﷺ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين . واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع)(٣) وقوله : (ياغلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)(٤) .

ولا نعدم أن تكون وصايا لقمان لابنه ، كانت فى مرحلة العمر الأولى . إعداداً له وتربية ، وهى مفصلة فى سورة لقمان من القرآن الكريم(٥) ، ومن خصوصيات هذه المرحلة فى القرآن الكريم ، ماجاء فى سورة النور وفى الآيتين (٥٨ ، ٥٩) . من توجيه خاص بالأطفال الذين لم

---

(١) الأحزاب ، آية ٤ ، ٥ .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه .

(٤) متفق عليه عن عمرو بن أبى سلمة .

(٥) الآيات من ١٣ ، ١٩ .

يبلغوا الحلم ، حيث يتوجب أن يستأذنوا فى الدخول فى أوقات معينة ، وهى أوقات خاصة يكون فيها أهل البيت الكبار فى أوضاع ، لقبتها الآية (ثلاث عورات) ولا شك أن ذلك أدخل فى التربية والتأديب ، وآكد فى إبعاد الصغار عن مواطن يظن معها لفت أنظارهم إلى مالا تطيقه سنهم ، وما ليست تؤهلهم له مرحلة عمرهم : ثم لينشأوا منضبطين على وعى بحدود الأمور وأبعادها .

إن مرحلة الطفولة لها خطرها فى التربية . ولها أثرها الغائر فى تكوين الإنسان جسديا ونفسيا وقلبيا وعقليا ، ومن ثم وجدنا لها خصوصية بينة فى دلالات النصوص القرآنية والسنية . الأمر الذى يوحى بضرورة الإعتناء بها تربويا ، ومن داخل ذلك أعاد الحق تبارك وتعالى الطفل موسى [عليه السلام] إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن(١) .

وإذا كانت التربية فى الإسلام تعطى لبعض المراحل العمرية للإنسان خصوصية وامتيازا . فإنها تلاحظ كذلك خصوصية لبعض الحالات والظروف . التى تستوجب معاملة خاصة وتربية خاصة كذلك استنتاجا من قوله تعالى: (لايكلف الله نفسا إلا وسعها)(٢) . وقوله تعالى: (لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها)(٣) : وقوله تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج)(٤) .

وفى هذا الصدد نطالع قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على

---

(١) راجع الآية ١٣ من سورة القصص .

(٢) البقرة ، من الآية ٢٨٦ .

(٣) الطلاق ، من الآية ٧ .

(٤) الحج ، من الآية ٧٨ .

الأعرج حرج ولا على المريض حرج ...)(١) الآية، ومفاد ذلك أن هذه الحالات حالات خاصة، من حيث إنها أعذار، يعذر صاحبها قطعاً، وإلا كان تكليفاً له بما لا يطاق، ومن ثم تتعين له تربية خاصة. تعالج فيه حالته، ويجبر فيه تعطل بعض حواسه، ثم إن المريض هنا، يشير إلى مطلق المرض، فيكون شاملاً لمطلق العذر، فيعذر كل صاحب عذر، ويعامل تربويا بملاحظة حالته الخاصة، سواء أكانت هذه الحالة خلقية أو طارئة وباب الأعذار فى القرآن والسنة والشرع واسع، لا يتسع المقام لإيراده كله أو جله، وإنما هى إشارات وأمثلة فقط.

أيضا: حالة اليتيم: سيما إذا عرفنا أن اليتم حالة تصف كل من مات أبوه وهو دون البلوغ، أى أنه حالة للإنسان فى مرحلة النشأة والطفولة.

هذه الحالة تجعل من صاحبها نوعية خاصة، تلقى مسئولية تربوية على الأولياء والأوصياء الشرعيين، بل تلقى مسئولية على الدولة والمجتمع، حتى لا يضيع اليتيم، وحتى يشب فرداً صالحاً سوى النفس والقلب والشعور فعالا مثمراً فى الحياة.

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا ... الآية)(٢). وقوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً

(١) النور، من الآية ٦١. وبالنص فى سورة الفتح، من الآية ١٧.
(٢) النساء، من الآية ٦.

كبيرا، وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ...)(١) الآية، وقوله تعالى: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً • إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً)(٢)، والآيات التى تناولت اليتيم أكثر من أن تحصى هنا.

فالآيات الكريمات هنا واضحة الدلالة فى الحدب على اليتيم وتعهده وابتلائه بما يرشده ويعلمه ويدربه، حتى يستقبل مسئولية نفسه ومسئولية ماقد يؤول إليه من مال تركة أبيه، ثم هى واضحة الدلالة فى التشديد على حفظهم وحفظ أموالهم، والتهديد الشديد للذين يفرطون فيهم وفى أموالهم.

إننا هنا أمام اعتناء شديد باليتيم. والقيام له بكل ما يصلحه وينجيه وينبغى أن تأخذ مناهج التربية الإسلامية ذلك بكل المسئولية والدعم والتفعيل، وقد جاء التنبيه على العدل فى اليتامى فى قوله تعالى: (وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم ... الآية)(٣).

وفى السنة المطهرة الكثير والكثير عن رعاية اليتيم والوصية به وإحسان تربيته، من مثل قوله ﷺ: [أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا: وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى](٤). وقوله ﷺ: [من ترك

(١) النساء، آية ٢، ٣.
(٢) النساء، آية ٩، ١٠.
(٣) النساء، من الآية ٣.
(٤) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فلورثته ، ومن ترك عيالا فإلىّ وعلىّ "](١) .

إن اليتيم أكثر إنسان يتعرض للضياع والإنحراف ، فكان من ثمة محل عناية الإسلام وحدبه . فجاءت الوصية به ، والترغيب فى كفالته ، والترهيب من تضييعه فى آيات عديدة وأحاديث متعددة ، للتوجيه إلى ضرورة تحمل المسلمين أفرادا وجماعات، حكاما ومحكومين أقرباء وغرباء مسئوليته ومسئولية تربيته وتنشئته وحمايته ، بل يصير ذلك من قبيل فروض الكفاية ، تأثم الجماعة بالتفريط فيه .

وإذا كانت التربية فى الإسلام - من موقع عمومها وشمولها - تعطى خصوصية لبعض المراحل ، ولبعض الحالات ، فإنها تعطى خصوصية كذلك للفوارق بين الناس بعضهم البعض ، ضرورة أن الناس جد مختلفين فى المواهب والقدرات والظروف والملابسات ، والمعايش والبيئات ، والشواغل والإهتمامات ، فلا يقبل - والحالة هذه - أن يساس الناس على قدم المساواة ، وأن يؤخذوا أخذا واحدا ، مع التسليم بالثوابت والأسس التى لا محيص عنها ولا محيد .

ومن داخل ذلك ، جاء ما يتعلق بالاعتقاد والإيمان مشتركا بين الأديان السماوية ، لا يختلف باختلاف الرسل ولا باختلاف زمانهم ومكانهم ، وهو لذلك هدى كله ، وهدى دائم وثابت لا يتغير .

« أما الشريعة ، وهى الأمور التى تتعلق بأعمال الإنسان ، من صلاة وزكاة وصوم ، أو نكاح وطلاق ، أو بيع وشراء ، فإنها تختلف باختلاف الأديان ، من حيث كيفيتها ونظام أدائها ، فإن لكل أمة .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، ج١٣١/٤ ، ومسلم فى الفرائض، ج٧٥/٧.

ولكل رسول شريعة معينة . وعبادات خاصة »(١) .

ونتذكر هنا قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)(٢) .

الشرائع العملية إذن مختلفة ، وفى الإسلام شُرِع الاجتهاد فى ضوء أصول التشريع الإسلامى وثوابته ، لمتابعة ما يستجد من أحداث ، ورعاية لاختلاف المسلمين بيئات وظروفا وأحوالا ، فنشأت المذاهب الفقهية ، وتنوعت الجهود والإجتهادات ، حتى إننا وجدنا إماما كالإمام الشافعى رحمه الله ، يقيم مذهبين، قديما بالعراق ، وجديدا بمصر ، مراعاة لطبيعة الحياة هنا وهناك .

وحيث إن ذلك كذلك ، فمراعاة الخصوصيات أمر يقره التشريع الحكيم ويعمل له ، ويجد الجميع فى كنفه أحكاما تحترم حاجاتهم وظروفهم وأعذارهم وطاقاتهم ، وهكذا .

والتربية الإسلامية من ثمة - وهى تتعامل مع الإنسان - فلا مندوحة لها عن مراعاة ما عساه يكون بين الناس من فوارق واختلافات ، فترعاها وتراعيها . بالتنمية والتأكيد إن كانت مما يحتاج إلى ذلك . وبغير ذلك من ألوان التعهد ، بحسب طبيعة هذه الفوارق والاختلافات ، فالذكى يراعى ، والأقل ذكاء كذلك ، وقوى البنية يراعى ؛ وضعيفها كذلك ، وصاحب الموهبة الخاصة يراعى ، وغير أصحاب المواهب كذلك

---

(١) فى الفكر الإسلامى ، ص ١١ ، مرجع سابق .

(٢) الشورى ، من الآية ١٣ .

وصاحب الاتجاه العلمى يراعى ، والأدبى كذلك ، وهكذا تتعدد محاور التربية فى الإسلام وتتنوع ، والقاعدة فى كل ذلك ما صح من قول الرسول ﷺ : [اعملوا فكل ميسر لما خلق له](١) ، وتصير التربية فى الإسلام نوعين : تربية عامة ، تربية خاصة .

وأبرز مثال للتربية بنوعيها — التى نحن بصددها الآن — سيدنا رسول الله ﷺ : النبى [الأمى] ، المصطفى ، المبعوث رحمة للعالمين ، الذى وقع تحت سطوة اليتم وهو لا يزال فى بطن أمه ﷺ ، ثم يبتلى بوفاة الأم أيضا فى سن الطفولة الباكرة .

هذا النبى الكريم [المربَّى الأول] و [المربِّى الأول] فى الإسلام خضع لعملية التربية بنوعيها العـام والخاص ، العام عبر رعاية جده عبد المطلب له ، ثم رعاية عمه أبى طالب من بعد ، والخاص عبر تربية ربه سبحانه وتعالى له . تربية النبوة والرسالة . وهى التربيه التى عبر عنها ﷺ بعبارة جامعة : [أدبنى ربى فأحسن تأديبى] . وهى التربية التى من داخلها . عصمه ربه تعالى . ووهبه الخلق الجميل والسيرة الحميدة التى كانت له من بعد شاهدا ودليلا على صدقه ﷺ فى دعواه الرسالة . والتى من داخلها يقول ﷺ : [ماهممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية . إلا مرتين من الدهر ، وكلتاهما عصمنى الله عز وجل منهما](٢) .

---

(١) من حديث متفق عليه ، عن على رضى الله عنه .

(٢) فى الفكر الإسلامى ، ص ٣٨ ، مرجع سابق . أخذا من السيرة الحلبية ج ٢ ، ص ١١٧ . وأعلام النبوة للماوردى ، ص ١٣٥ . نقلا عن [بشائر النبوة الخاتمة] ، د / رؤوف شلبى .

ولم يكن هذا الهم إلا بقبيح فقط . ولم يكن مما يحرم ويجرم فى عرف العرب وشريعتهم آنذاك . ولم يكن هذا الهم إلا الرغبة فى مشاهدة حفل عرس فى الحالين . فكان يُضرب عليه ﷺ النـوم ، فلا يشاهد شيئا ، تلكم هى التربية التى نشأته ﷺ ، نشأة طيبة . فلم يسجد لصنم . ولم يشرب الخمر ، ولم يفعل شيئا من المفاسد ، ولم يلعب القداح كما كان يلعب أترابه من أهل مكة ،(١) .

بل إن أنبياء الله تعالى ورسله قد خضعوا للونى التربية هـذين . وكانت التربية الخاصة هى تربية ربهم جل وعلا لهم . حيث أصطفاهم وأجتباهم وأختارهم للبلاغ عنه سبحانه ، وليكونوا المربين لأقوامهم وأهليهم ، (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)(٢) .

وهى التربية التى عبر عنها القرآن الكريم فى حق موسى عليه السلام : (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى)(٣) ، وفى حق يوسف عليه السلام : (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين)(٤) ، وفى حقه لما راودته امرأة العزيز عن نفسه (... قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون)(٥) [... ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ...](٦) . وفى حقه اعترافا بفضل الله تعالى : [... أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين](٧) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

(٢) الحج ، من الآية ٧٥ .

(٣) طه ، من الآية ٣٩ .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) سورة يوسف ، الآيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ١٠١ .

وهى التى عبر عنها القرآن الكريم فى حق إبراهيم عليه السلام : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال إنى جاعلك للناس إماما)(١) الآية ، وقوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)(٢) .

وهكذا أنبياء الله تعالى ورسله . نشئوا التنشئة المثالية . التى أهلتهم لحمل رسالاته إلى الناس ، وخضعوا للون من التربية الإلهية الخاصة ، التى جعلت منهم أئمة هداة مهديين ، صالحين مصلحين ، ومن ثم وجبت فى حقهم الكمالات البشرية ، واستحال عليهم كل نقص بشرى ، ووجبت لهم الأمانة والصدق والفطانة ، ودعوا إلى كل خير ، ونهوا عن كل شر ، وكانوا هم الذين قال الله تعالى عنهم : [أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ...](٣) .

ومن حيث إن الإسلام رسالة عامة خاتمة ، كان هو الدين الصالح لكل زمان ومكان ، الصالح لكل الناس فى مناشطهم وتقلبات حياتهم ، ومن ثم نجد توجيهات حكيمة لكل مناشط الحياة ، فى البيع والشراء ، والمعاملات جميعها ، والعلاقات جميعها ، والحرف والمهن وغير ذلك من كل ماهو للناس فى عامة أمورهم وخاصتها ، قصدا إلى أن تنضبط حياة الناس على منهج الله تعالى ، وأن يطال هذا الإنضباط الإنسان وشأنه كله حتى يكون عبدا لله تعالى ، يسع الحياة . وتسعه الحياة .

---

[١] البقرة ، من الآية ١٢٤ .
[٢] الأنبياء ، آية ٥١ .
[٣] الأنعام ، من الآية ٩٠ .

ذات منطلق عقدى :

إن العقيدة هى أصل الدين ، وقاعدته التى يقوم عليها بناؤه ، ويعلو عليها صرحه ، وهى الدوحة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تثمر الإيمان والعمل والأخلاق ، وتتأسس عليها أوامر الإسلام ونواهيه . وتقوم عليها شريعته وآدابه .

ومن حيث هى كذلك . فما كان للتربية فى الإسلام إلا أن تستمد من العقيدة أصلها وأصالتها ، وتستجيب لما تقرره العقيدة من قواعد وأركان . ثم تستجيب كذلك لما تثمره العقيدة من قيم ومبادىء والتزامات ، تدفع المسلم نحو تحقيق إرادة الله تعالى منه لما خلقه له ، وهى العبادة (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ومن داخل هذه العبادة ، يضطلع بمسئوليات الخلافة والإعمار . اللذين هما أخص وظائف الإنسان فى الأرض : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة)(١) (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)(٢) .

ولو حاولنا التفتيش عن المنطلقات العقدية للتربية الإسلامية ، لأمكننا أن نضع أيدينا على العديد والعديد . لكننا سنركز على مايمثل الأساس من ذلك :

أولا : توجهنا عقيدة الإسلام الرائعة إلى حقيقة أن خصوصية الإنسان وامتيازه هى فى العلم ، والتعلم ، والعمل بمقتضى هذا العلم . والعلم والتعلم والعمل ، هن أصل التربية وأساسها .

---

(١) البقرة ، من الآية ٣٠ .
(٢) هود ، من الآية ٦١ .

يطالعنا على ذلك قوله تعالى : [وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما تكتمون »(١) .

فالحق تبارك وتعالى : « علم آدم الأسماء كلها » ، وهنا عملية تعليم إلهى للإنسان ، ثم هنا كذلك علم ، وهو علم الأسماء ، ثم امتياز لآدم على الملائكة حيث لم يعلموا كل الأسماء ، وعلمها آدم . ثم نستفيد كذلك أن الحق تبارك وتعالى هيأ الإنسان لهذه الإرادة العليا ، وهى أن يتعلم فيعلم ، ويعلم فيعمل ، وهذا « يعنى الاتجاه فى التعليم إلى العلم العملى . لأنه تعليم لا من أجل العلم التام بالأشياء فى حد ذاتها . إذ لاقبل لمحدودية الإنسان بذلك . ولكن من أجل التعامل مع الأشياء إعداداً لوظيفة الخلافة »(٢) فى الأرض .

ولنا أن نقول هنا :

١ — إن شرف الإنسان وإنسانية الإنسان فى العلم والتعلم والعمل بما علم وتعلم .

٢ — أن حجب الحق تبارك وتعالى عن الملائكة ماعلمه لآدم عليه السلام ، فوق أنه عنصر من عناصر التميز ، فهو أيضاً إشعار بأن

(١) البقرة آية ٣١ - ٣٣ .

(٢) قصور العلم كأساس فى حاجته إلى التوجعية ، د/ يحيى هاشم حسن فرغل ، ص ٤٧ ، جامعة الإمارات العربية المتحدة .

تجربة الإنسان على الأرض ، خليفة ومستعمرا ، هى تجربة إنسانية ، وليست ملائكية ، تجربة تمتزج فيها المادة بالروح ، والعقل بالارادة ، والغريزة بالسمو . والقوة بالضعف .

تجربة تستدعى عناصر الإنسان بكل تقابلاتها وتفاعلاتها ؛ وهى غير ماهيئت الملائكة عليهم السلام له من مداومة العبادة والتسبيح ، فتجربة الملائكة من ثمة مختلفة كثيراً عن تجربة الإنسان على الأرض . وهم خلقوا لوظيفة ، وهو خلق لوظيفة ، لكن وظيفة الإنسان أرضية ، وسيقابل فيها ويتعامل من خلالها ، مع الأحياء والأشياء على الأرض ، فهى تجربة معقدة رحبة ، ما كان له أن يضطلع بها ، بدون العلم والتعلم والعمل .

ومن ثم فإن آدم أبا البشر والناس خضع لعملية يصح أن نطلق عليها (تربوية) أساسها العلم والتعلم والعمل ، وعلى ذلك تكون التربية الإسلامية إسلامية ، لو وعت ذلك تماماً : فاتخذت من العلم منطلقا ومن التعلم سببا ، ومن العمل الصالح هدفا وغاية .

وتوفرت على العلم بكل جهاته وتوجهاته ، لا فرق فيه بين علم الدين وعلم الدنيا ، فالحق تبارك وتعالى : « علم آدم الأسماء كلها » ، وعلى التعلم بكل وسائله وأدواته ، حسية وعقلية وتجريبية ، فالحق تبارك وتعالى طلب من الملائكة إنباءه بأسماء هؤلاء ، أى المشار إليهم ، أى أنهم ممتحنون فى أشياء حاضرة ، ترى وتشاهد ، علمها لآدم من قبل بالمشاهدة ، ووعاها واختزنها بالعقل .

ثانيا : توجهنا العقيدة الإسلامية إلى مراد الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وهو (العبادة) فى قوله تعالى : (وماخلقت الجن

والإنس إلا ليعبدون) ، فالعبادة هنا مطلب عقدى إذن ، يستمد حقيقته ، من علاقتين مترابطتين ، علاقة الخالقية وعلاقة المخلوقية ، فالخالقية حقها العبودية لله ، والمخلوقية واجبها المعبودية لله تعالى من العبد .

وهنا نود التأكيد على الآتى :

١ — أن العبادة هنا إسم جامع لكل ماهو طاعة لله تعالى وخضوع له سبحانه ، فى كل ما أمر ونهى ، وأحل وحرم ، وأوجب ومنع ، هى كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : « إسم جامع لكل مايحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »(١) .

ومن ثم : تكون العبادة هنا منهج حياة كاملة ، ينخلع فيها الإنسان عن كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى . ويستجيب لكل مايرضى الله تعالى ، ويبعد سخطه .

٢ — أن العبادة هنا آية إنسانية الإنسان ، وبرهان قيمته .

٣ — أن العبادة هى تعبير عن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، حيث فطر الحق سبحانه العباد وخلقهم مؤهلين للعبادة ، بل ومنقادين إليها ف « والعبودية طبيعة أولى فى النفس البشرية ، فإذا لم يختر الإنسان معبوده الذى هو الله الخالق بوعى صادق ، وقع فى العبودية لغير الله تعالى »(٢) ، ومن ثم كانت العبادة فى الإسلام متوافقة مع الفطرة ، وعاملة على تنميتها وترقيتها « فهى إبتداء تقوم على الإعتراف بجميع مكونات شخصية الإنسان ،

(١) العبودية ، ابن تيمية ، ص ٦ . الطبعة الأولى ١٤١٩ — ١٩٩٩ م مكتبة المدينة المنورة .

(٢) الفكر الإسلامى ، ص ٨١ . مرجع سابق .

من الجسد والروح والعقل والإرادة . إنها تقوم على الربط . . . بين الظاهر والباطن واحترام كليهما ، والتعامل مع فطرة الإنسان بإعتباره مزيجا من الأمرين »(١) . فكأن الإنسان بفطرته عابد ، ثم إنه قد ينحرف ويضل ، فيعبد غير الله تعالى أويشرك معه فى عبادته غيره سبحانه .

٤ — ومع أن العبادة فى الإسلام تأخذ هذا المعنى الشامل لحياة الإنسان وعلاقاته ، « إلا أن هذا الشمول لم يترك هملا ، وإنما اهتمت الشريعة بتفصيل أنواع ، كما أهتمت بالإشارة إلى أنواع « ووضعت القواعد للحكم على أنواع ، وأرسلت الأمر فى أعمال المسلم جميعها ليحصل الإجتهاد منه فى جعلها عبادات عن طريق النية ، وفقاً لتلك القواعد العامة »(٢) .

٥ — من ثم تكون العقيدة عبادة ، والأخلاق عبادة ، والعمل عبادة والسعى على الوزق عبادة وطلب العلم عبادة ، والجهاد عبادة . . . ألخ ، إلى جانب العبادات المخصوصة من الصلاة والزكاة والصيام والحج :

٦ — من هنا ينبغى أن يكون هدف التربية فى الإسلام صياغة الإنسان العابد لله تعالى : وتمثل العبادة منطلقا عقديا للتربية ، ينبغى أن تعيه دائما ، فالعبادة إذن تمثل هدفا ، والتربية تمثل وسيلة ، ولا غناء بأحدهما عن الآخرة .

ثالثاً : قول الحق تبارك وتعالى : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) ، نجد فيه توجيها عقديا ، يؤكد على أن الإنسان

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(٢) « « ، ص ٨٤ .

ابن الأرض ، وهى منه بمثابة الأم ، مصداقا لقوله تعالى : (إنى خالق بشراً من طين) وقوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتا)[١] . وقوله تعالى (... هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض)[٢] كما يؤكد على أن هذا الإنسان مستعمر فى الأرض ، يقوم فيها بواجب الإعمار ، فى كل مايحقق الإعمار ، وفى كل مايتأتى فيه الإعمار منها ، ولابد أن يكون الإعمار بكل ماهو خير ونافع ، ضرورة أن الإعمار نقيض الإخراب . ولا يتصور أن يكون مراد الله تعالى من الإعمار غير ذلك إذ هو القائل سبحانه : « ... والله لايحب الفساد »[٣] وهو القائل: (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)[٤] وهو القائل (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)[٥] .

وحتى يحفز الإنسان على هذه الوظيفة هيأه وأعده للسعى والعمل وحبب إليه الخير (وإنه لحب الخير لشديد)[٦] ، وأودع فيه حب المال والولد والإستكثار من الأموال والأولاد ، وركب فيه القوى والغرائز ، ثم أعانه على مهمته بتذليل الأرض ، وتسخير مخلوقات وقوى عديدة له : الحيوان والشجر والجبال والبحار والأنهار والنبات والشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وبالجملة : جعله سبحانه وتعالى محل عنايته ، لما جعل خلق جميع الموجودات من أجله . ثم طالبه بالإعمار ، من داخل وظيفة الخلافة ، صعوداً إلى الوظيفة الأم وهى العبادة .

(١) نوح ، آية ١٧ . (٢) النجم ، من الآية ٣٢ .
(٣) البقرة ، من الآية ٢٠٥ .
(٤) الأعراف ، آية ٧٤ . والآيات ٦٠ البقرة ، ٨٥ / هود ، ١٨٣ الشعراء ، ٣٦ / العنكبوت .
(٥) الحج ، من الآية ٧٧ . (٦) العاديات ، الآية ٨ .

هذا ما تهدينا إليه العقيدة فى بساطتها وروعتها ، وهو ما يفيدنا هنا فى أن التربية فى الإسلام ، تعد الإنسان المعمر النافع الساعى العامل الكاد الكادح ، تعده لذلك نفسيا وعقليا وجسديا وإيمانيا . حتى يكون العابدَ الخليفةَ المعمر ، وينبغى أن تسير التربية فى الإسلام فى هذا الإتجاه ، دائما وفعلا ، وتكون التربية هنا تربية عامة شاملة . من حيث إن وظائف الإنسان فى الحياة وعلى الأرض وظائف تشمله بكليته ، وتشمل كل نشاطاته وطموحاته ، وتشمل حياته الأرضية ، وحياته الأبدية معا .

إننا هنا أمام منطلق عقدى واضح ومحور هام من محاور التربية الإسلامية التى تعنى بتنمية الإنسان ، ورعايه عناصر شخصيته جميعاً .

ومن داخل ذلك ، تكون التربية تربية الإنسان الفرد ، والإنسان الجماعة ، والإنسان المجتمع ، لأن وظائف العبادة والخلافة والإعمار هى للإنسان والإنسانية ، ثم إنه لن يتأتى له ممارستها أو أى منها ، إلا بالتعاون والتبادل ، والتنافس كذلك .

أيضا لن يتأتى له القيام بها إلا بالعلم والتعلم والخبرة والتدريب ، وهذا هو دور التربية ، والحق تبارك وتعالى شاء أن يأتى الإنسان إلى الدنيا خلوا من أية معارف وخبرات ، وإن كان قد هيأه لاكتسابها ، يصدق ذلك قوله تعالى : [والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ..] الآية[١] ، والدلالة المعتبرة هنا هى أن المهيأ للعلم والتعلم واكتساب الخبرة واختزانها ، المولود ليس عنده شىء منها ، لا طريق أمامه إلا أن يشرب من ذلك شيئاً فشيئاً ،

(١) النحل ، من الآية ٧٨

رويداً رويداً ، وبالقدر الذى يستشعر حاجته إليه ، ويستشعر المربون حاجته إليه . حتى يكتمل ويتكامل .

ولا بديل هنا عن التربية ، التى تبنى الشخصية وتشيد قواها ، وتزودها بكل الخبرات العلمية والعملية .

نعلم ذلك ، لنتقدم خطوة أخرى فى اتجاه التعرف على علاقة التربية فى الإسلام بالعقيدة ، فنجد أنفسنا وجها لوجه أمام عقيدة التوحيد :

إن التوحيد هو صلب عقائد الإسلام ومحورها الأساسى ، فإذا كانت عقائد الإسلام ترتكز ابتداء على الإيمان بالله تعالى ، فإن الإيمان بالله تعالى ركيزته الايمان بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله ، وتوحيده جل وعلا ، فلا يتحقق الإيمان بالله تعالى إلا باعتقاد ذاته وصفاته وأفعاله ووحدانيته سبحانه .

بل إن التصور العقدى الإسلامى حقيقة يقوم على الإقرار بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . فلا يتصور وجود الله تعالى إلا وهو واحد ، ولا تتصور صفاته وأفعاله إلا لواحد .

فالحقيقة إذن أن التوحيد هو الأساس فى التصور العقدى الإسلامى والتوحيد هنا ليس توحيداً ملفقاً ، ولا توحيداً غامضاً ، ولا توحيداً فى شرك ، ولا شركا فى توحيد ، بل هو توحيد صريح خالص واضح ، إنه الإقرار بوحدانية الله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالا وألوهية وربوبية ، يقرر ذلك ويؤكده ويفرضه ، نصوص وفيرة كثيرة . من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويشهد له ويعضده براهين العقول ، وحقائق العلم ، وآيات الكون والوجود .

ونحن هنا لسنا بصدد الاستفاضة فى ذلك ، حتى لا تصرفنا عن غايتنا ، وهى التفتيش عن المنطلقات العقدية للتربية الاسلامية .

إن التربية فى الإسلام ، من حيث هى سبيل بناء شخصية المسلم . يجب أن تتأسس على قاعدة التوحيد الخالص لله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالا وألوهية وربوبية وحاكمية .

والأمر هنا لا يبارح فطرة الإنسان التى فطره الله عليها . فدور التربية هو دعم الفطرة الموحدة وحراستها ، ذلك أن التوحيد فى حقيقته استعداد فطرى . كامن فى كل نفس بشرية . تندفع إليه بقوتها الذاتية . إذا هى سلمت من إلحاد الهوى والبيئة والمطامع الشخصية . قال تعالى : [وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين](١) .

وفى السنة النبوية إشارة إلى ذلك فى قوله ﷺ : [ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟](٢) .

وأعظم ما يكون بين التربية والعقيدة الإسلامية هو فى أصل التوحيد ، أى تحقيق العبودية لله تعالى فى كل شئون الحياة .

إذ أن الهدف الأسمى من التربية الإسلامية هو تحقيق العبودية لله

---

(١) الأعراف ، الآية ١٧٢ .

(٢) متفق عليه .

تعالى ، ومن هنا نلمس عمق الإلتحام بين التربية والعقيدة فى الإسلام ، ومدى أهمية العقيدة فى تكوين دعائم التربية الإسلامية »(١) .

إن التربية فى الإسلام تأخذ وضعها الإسلامى بالتحرك من موقع توحيد الله تعالى . ويتنامى وضعها ويكتمل . كلما اقترب موقعها من التوحيد الخالص أكثر فأكثر .

وإذا كانت عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى . هى أم عقائد الإسلام . وهى فطرة النفس السليمة ، فهى ذات عطاء تربوى خصب فى وضع الإنسان والحياة .

١ ــ فالتوحيد أصل العبادة . التى قلنا إنها مراد الله تعالى من خلق الإنسان .

حيث إن العبادة المعتبرة فى الاسلام . هى العبادة الخالصة لوجهه تعالى ، إعمالا للنصوص الواردة ، من مثل قوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)(٢) ، وقوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)(٣) ، ومفاده : إفراد الله تعالى بالعبودية ، وهو على المستوى العقدى يعنى تحقق شرط الإيمان ، وعلى المستوى العبادى ، يعنى : « أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى ، دون أى شىء آخر من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب لعرض دنيوى أو محمدة عند الناس .

---

(١) جوانب من الواقع التربوى المعاصر فى ضوء العقيدة الاسلامية ، ص ١٨ ، ١٩ ، مرجع سابق .

(٢) سورة البينة ، من الآية ٥ .

(٣) الكهف ، من الآية ١١٠ .

وفى هذا المعنى جاء قول الرسول ﷺ صريحاً واضحاً ، فى روايته عن ربه فى الحديث القدسى : (قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)(١) .

فالمقصود هو التبرى عما يطلق عليه الشرك الأصغر ، يقول الرسول ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عز وجل يوم القيامة ، إذا جازى العباد بأعمالهم : أذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء)(٢) .

فلا عبودية بدون عبادة . ولا عبادة بدون إخلاص ، ولا إخلاص بدون الانخلاع عن كافة ألوان الشرك . ولا معنى لذلك كله إلا التوحيد بكل جهاته وتوجهاته . وهذا ما ينبغى أن تعمل التربية له أولا وآخراً .

٢ ــ والتوحيد الخالص ، من حيث إنه يعنى الإنخلاع عن كل مظاهر العبودية والعبادة لغير الله تعالى ، يعنى فى نفس الوقت تحرر الإنسان نفساً وقلباً وعقلا ووجداناً وظاهراً وباطناً ، من كل ماسوى الله تعالى وسلطانه ويعنى : أن حرية الإنسان الحقة فى توحيده الله تعالى ، ودون توحيده سبحانه ، درجات من الشرك أى درجات من العبودية للمخلوق من إنسان أو شجر أو حجر أو شمس أو قمر ، أو مَلك أو مَلَك ، وهو مايعنى ، التذلل لمن لايملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الفكر الإسلامى ، ص ٩٧ ، مرجع سابق .

ولا نشورا ، ولا رزقاً ولا منعاً ولا عزاً ولا ذلا ، فتنحط بذلك إنسانية الإنسان ، وتنفسخ شخصيته ، ويذوى كيانه ، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول : [أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار](١) .

٣ — تعطينا عقيدة التوحيد الخالص كذلك - مع وحدة البناء الإنسانى - وحدة البناء الكونى ، ووحدة النظرة إليه ، ووحدة الغاية من هذا الوجود ، ووحدة القوانين الضابطة له ، ووحدة السنن الكونية واستمراريتها بالإرادة الإلهية ، ووحدة النظام الكونى مع ذلك .

إن وحدة الخالق جل وعلا ، هى آية انتظام حركة الكون ، وآية تماسكه وترابطه ، وآية صلاحه وتوحده ، وصدق الله العظيم إذ يقول : [لوكا فيهما آلهة إلا الله لفسدتا](٢) .

ويعطينا ذلك كله معطيات تربوية جيدة منها :

— العلاقة العضوية بين الإنسان والكون على محور الوحدة ، فكل منهما آية من آيات وحدانية الخالق جل وعلا ، من داخل وحدة البناء ، ووحدة المخلوقية لخالق واحد ، ووحدة إرادة خلقهما . فإذا كان مراد الله تعالى من خلق الإنسان هو العبادة ، فإن كون الله تعالى يحقق هذا المراد كذلك . [تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً](٣) ، [إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً](٤) .

---

(١) يوسف ، من الآية ٣٩ . (٢) الأنبياء ، من الآية ٢٢ .
(٣) الإسراء ، آية ٤٤ . (٤) مريم ، آية ٩٣ .

وحيث إن الأمر كذلك ، فلا محيص للإنسان عن أن يتوحد مع الكون فى منظومة العبادة ، وعن أن يتعامل مع مفردات الكون تعامل العابد ، أى تعامل الانتفاع دون السيطرة ، والتسخير دون الصراع ، والرحمة دون الحيف . وهنا نعثر على المنطلق العلمى للتعامل مع الطبيعة ، وتوظيفها والانتفاع بها ، ومنطلق علاقة الإنسان بالكون من حوله ، وهى علاقة التكامل والتفاعل ، علاقة الخلافة والإعمار . فالكون ذاته قائم على الوحدة والتماسك ، دون الإنقسام والتنازع .

— إن عقيدة التوحيد الخالص - فوق ذلك كله - ترفض الوسائط والحوائل ، بين العبد وربه ، فتصبح علاقته بالله تعالى علاقة مباشرة ، يتحمل فيها الإنسان مسئولية مباشرة ، دون وساطة من كاهن أو راهب أو سادن ، بل حضور القلب ، ويقظة الضمير ، وفى ذلك تربية وأى تربية ، فيه ضرورة أن يتحمل الإنسان وحده مسئولية عمله ، حيث تنتفى الوساطات والوسائط ، فيصبح الإنسان أمام ربه مباشرة ، ويصير مطلوباً منه حضور القلب ، وتكايف الضمير .

إن عقيدة التوحيد ، تنمى فى الإنسان حمل المسئولية ، والوعى القلبى ، وتنبه الضمير ، وهى غايات تربوية عالية ؛ أمله فى الله ، دعاؤه لله ، اطمئنانه بالله ، لجوءه إلى الله ، عمله لله ، ورجاؤه فى الله وتوكله على الله . وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال على لسان نبيه ﷺ : [قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين] لأنه ﷺ حقق التوحيد فى أعلى صوره ومستوياته .

— عقيدة التوحيد ، من حيث تفرض وحدانية الخالق جل وعلا ربا وإلها ، تفرض فى نفس الوقت ، وحدانية المشرع ، ووحدة

التشريع ، فحيث هو سبحانه الخالق ، فهو أعلم بمن خلق ، وحيث له الخلق فله الأمر .

يقول تعالى: (ألا يعلم من خلق)[١] ، ويقول سبحانه: (ألا له الخلق والأمر)[٢] .

وتصبح قضية التوحيد إذن ليست قضية غيبية خاصة بالآخرة ، ولكنها بالإضافة إلى كونها متعلقة بالآخرة قضية من صميم الحياة الدنيا، لأنه يترتب عليها،من المشرع ؟ أى من واضع منهج الحياة للناس ؟ وأنه حين لا يكون الله تعالى هو المعبود وحده بلاشريك ، تختل الحياة بجملتها ، ويقع الناس فى الخبال .

ومن ثم فإن عقيدة التوحيد تنبه مباشرة إلى قضية الشرع الحاكم ، وإلى أن يكون هذا الشرع الحاكم هو شرع الله تعالى ، بل إن الشريعة تصير من مقتضيات العقيدة وفروضها ، مقتضيات شهادة التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله[٣] ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، ويترابط من ثم : الألوهية بالعبودية ، والعبودية بالتوحيد ، والتوحيد بالتشريع .

وفى ضوء ذلك ينبغى أن تتجه التربية فى الإسلام إلى خدمة ذلك ، بعد أن تتخذ منه منطلقاً عقدياً ..

---

(١) سورة الملك ، من الآية ١٤ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية ٥٤ .

(٣) العقيدة الإسلامية وبناء الحضارة ، د/ أحمد عبده حموده الجمل ، ص ٤٧ مرجع سابق .

عقائد أخرى :

هناك العديد من مفردات العقيدة الإسلامية ، يصح أن تمثل منطلقات وغايات للتربية الإسلامية ، فوق ما تقدم مثل :

عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة الجزاء ، وعقيدة الإبتلاء ، وعقيدة التوكل على الله، وعقيدة اليوم الآخر ، والبعث . حيث إن هذه العقائد تصب فى اتجاه دفع الإنسان إلى كل ما ينجيه ويسعده ، ودفعه بعيداً عن كل ما يهلكه ويشقيه ، وحثه على أن يلتزم جانب الطاعات ، ويتنكب طريق المعاصى والمهلكات ، وهذا المعنى واضح فى عقائد : الجزاء والبعث واليوم الآخر .

ومن العقائد ما يدرب الإنسان على كيفية التعامل مع العافية والمصيبة والخير والشر ، والنافع والضار ، فيتقبل فضل الله تعالى بالعافية والخير والنافع والنعمة بالشكر والعرفان قولا وعملا ، ويستقبل قدر الله تعالى بالمصيبة والضار والشر بالصبر والتصبر والثبات والإيمان ، حتى لا يقتله اليأس ، ويركبه القنوط ، فيهوى فى سحيق الحياة .

إن الإبتلاء بالخير والشر وبالنافع والضار وبالمصيبة والعافية قانون إلهى نافذ ، يحمل معانى تربوية عالية ، ويدرب الإنسان على التماسك والتوازن والصمود والشكر والصبر والتحلى بالتواضع ونبذ الغرور ، والإحساس بالآخرين والعمل بروح الجماعة . وصدق الله العظيم : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)[١] ، (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية ٣٥ .

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)(١).

والتوكل على الله: معلم من معالم الإعتقاد فى الإسلام، وحقيقته أن يتوكل على الله قلبيا؛ ثم يمارس العمل والسعى والحيلة والتخطيط، ويأخذ بالأسباب ويترقب النتائج، فإن جاءت كما يرغب، حمد الله وشكر له. وإن جاءت على غير ما كان يرغب ويخطط، راجع نفسه، ثم أستأنف العمل من جديد.

والتوكل بهذه المثابة تجربة تربوية ثرية. تمحص الإنسان، وتقويه وتمرسه نفسياً وسلوكيا، وتدعمه بالطاقة الحافزة نحو التجويد والتخطيط وحساب الأمور.

وعقيدة الجزاء: تضع الإنسان على طريق الطاعة لله والإنضباط والحفز والعمل، وتعالج فى الإنسان أسباب الجزع والفزع، ومظاهر التناقض فى الحياة، ما بين الصحة والمرض، والفقر والغنى .. إلخ.

إن عقيدة الجزاء الأخروى تدور على عدل الله تعالى وفضله. فإن يكن الجزاء الدنيوى ليس وافيا بما يصيب الناس ويقع منهم. فهو لاشك يعطى دروسا فى التربية، والجزاء الأوفى واقع فى الآخرة فما يفوت فى الدنيا، يحصل فى الآخرة، حيث الجزاء الوافى والأوفى [ثم يجزاه الجزاء الأوفى، وأن إلى ربك المنتهى](٢).

وعقيدة الجزاء بهذه المثابة، تقدم دروسا تربوية جيدة، تحفظ على الإنسان تماسكه وتوازنه.

---

(١) البقرة آية ١٥٥.

(٢) النجم، آية ٤١، ٤٢.

وعقيدة القضاء والقدر، فى وضعها الصحيح، تمثل تجربة تربوية سامية، فتحفز إلى العمل والأخذ بالأسباب، مع اعتقاد أن الأمور تسير بتقدير الله تعالى وعلمه وإرادته.

وهكذا عقائد الاسلام. تمثل منطلقات وقواعد للتربية فى الاسلام. وينبغى أن تعى مناهج التربية فى الإسلام. عطاءات العقيدة فى جانب الإنسان والحياة والعمل وكل ما يدفع الإنسان إلى الكمال. والتفاعل الحيد مع عناصر الكون والوجود، وينبغى أن تدعم مناهج التربية الإسلامية هذه المنطلقات وتخدم تلك الغايات.

وفى ضوء العقيدة الإسلامية. يُلزم المسلم بالقيم الأخلاقية والسلوكية وينضبط على حدود الشرع الحكيم.

وبعد...

فما قدمناه على مساحة هذا البحث هو جهد المقل، فإن كنا قد أصبنا بعض أو كل الحق والحقيقة، فالحمد لله، وإن كانت الأخرى، فنستغفر الله، ونعتذر من - ثمة - إلى التربويين (علماء ومفكرين ومخططين وممارسين) إذا كنا قد قصرنا دون الغاية.

وتظل الطريق مفتوحة أمام كل جهد مخلص وخالص، فى قضية التربية فى العالم الإسلامى، تلك التى هى المشكلة والحل معا.

والله من وراء القصد.

١١ من صفر ١٤٢١ هـ ١٥ من مايو ٢٠٠٠

د/ أحمد عبده حموده الجمل